

إشكالية المنهج في
استثمار السنة النبوية

دكتور الطيب برغوث



٢

إشكالية المنهج
في استثمار السنة النبوية

د. الطيب برغوث

د. الطيب برغوث

من مواليد 20 أبريل 1951م بالقطر الجزائري، حاصل على شهادة الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية وشهادة الماجستير في الدعوة، وشهادة الدكتوراه في قسم الدعوة.

صدرت له سلسلة أعمال، منها: «الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية» و«الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري»، و«موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي» و«حركة تجديد الأمة» و«مشكلات في الوعي والمنهج»، وغيرها.



نهر متعدد.. متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة، رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 2487106 (965+) - فاكس: 2468134 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يوليو 2007م / جمادى الثاني 1428هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

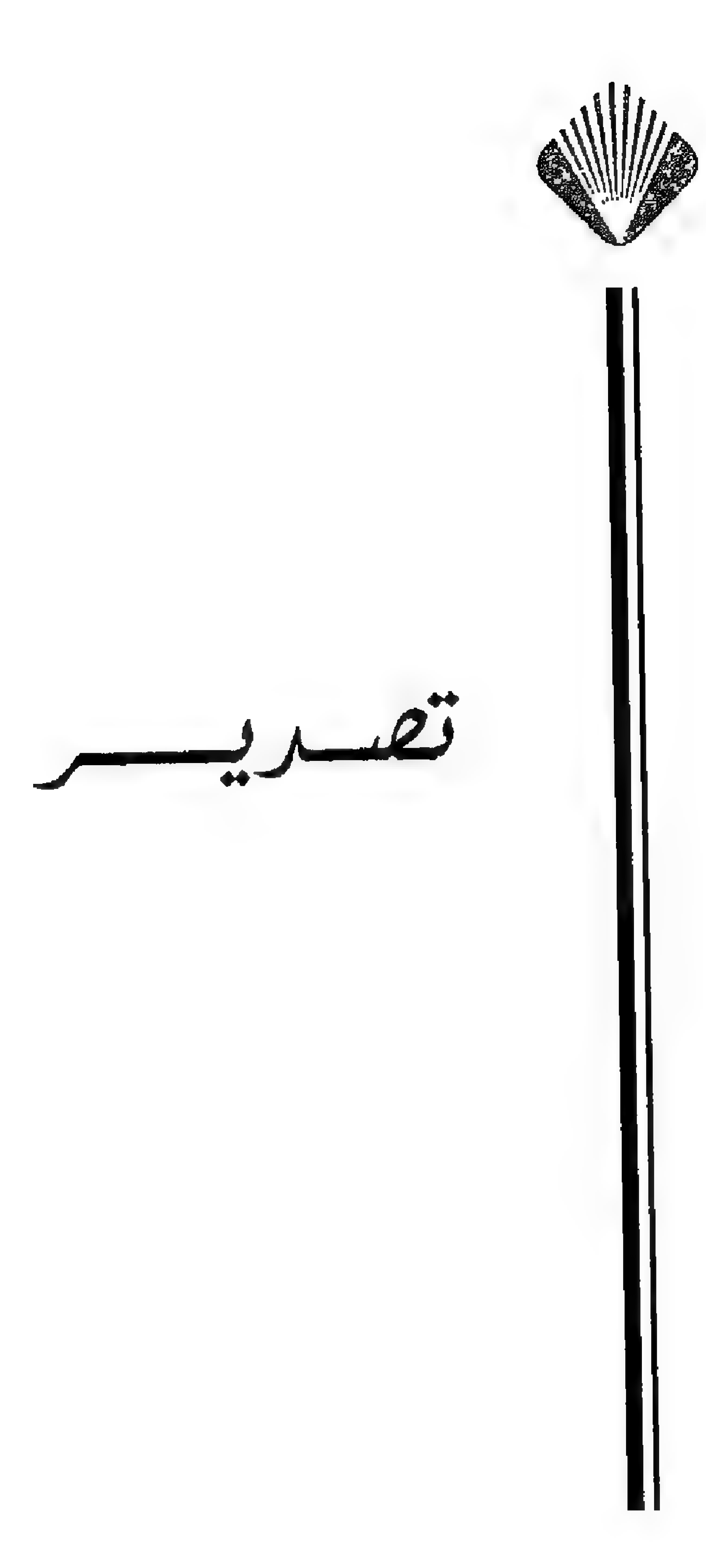
الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع : 2006/539
ردمك: 7-70-90-99906

فهرس المحتويات

الفصل الثاني



تصدير


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

تتعدد وجهات نظر الباحثين والمثقفين والمحللين السياسيين حول أسباب تخلف العالم العربي والإسلامي وتفريط أمة «اقرأ» في الأخذ بأسباب تحقيق خيريتها كأمة «وسط» لتكون شاهدة على سائر الأمم الأخرى، وترجمة قوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»، فمن قائل إن الأزمة تربوية، ومن قائل إنها أخلاقية، ومن قائل إنها اقتصادية، ومن قائل إنها سياسية، لكن المؤكد، استنادا إلى معطيات التحاليل المخبرية لواقع الأمة الحالي، أن الأزمة هي كل هذا، متعددة الجوانب والأشكال.

في هذا الإطار، ومحاولة منه لوضع منهج سديد يستند مباشرة إلى اقتباس المنهج النبوي في التغيير، مراعاة لواقع الأمة الحالي وما يعتمل فيها من أزمات في سياق تفاعلها مع باقي الأمم الأخرى، يأتي كتاب الباحث الطيب برغوث: «إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية» ليؤكد، من خلال وقائع متعددة تغطي جميع مناحي الحياة اليومية للأمة الإسلامية، أن سبب استمرار الأمة في هذا الوهاد الحضاري إنما في سوء تطبيقها للمنهج النبوي في التغيير، وليس في امتلاكها للمنهج نفسه ولا للمعرفة الضرورية لتحقيق هذه النهضة المرتقبة، إيمانا منه بأن المنهج هو الأصل الذي عليه تبنى كل جميع نظريات التغيير الاجتماعي.

إن الكتاب «إشكالية المنهج في فهم السنة النبوية» يلقي الضوء، من خلال تحليل واستنطاق كثير من النصوص القرآنية والحديثية خاصة، على واقع الأمة الحالي راصدا الفرق العظيم بين هذا الواقع وبين موقعها المنشود الذي ينبغي أن تشغله لا أن تتركه

شاغـرا، وهـو، في سعيه هذا، يلفت النظـر إلى كثير مما يسمى بالمحفـزات الحضارية التي من شأنها، إن هي توافرت في إرادتنا وسعينـا نحـو التغيير، أن تعطـي نتائج طيبـة، وأن تنتقل بنا من واقعنـا المشـدود إلى الطين نحو واقع أرحـب وأوسع، نحو عالم الأفكار والروح، وعلى قائمة هذه المحفزات شرط صوابية المنهج على طريق استثمار السنة النبوية.

ويحـاول الكتـاب الإجابة علـى إشكالية حضاريـة كبيرة جدا ويوجـه دعوة صريحة لـكل الكتاب والباحثـين والمفكرين ليقفوا عندهـا ويتأملوها جيدا علهم يستطيعون إيجاد مخرج للأمة من هـذا الواقع المتردي، ذلك ما يتعلق بمحاولته الإجابة ضمنا على السـؤال الحضـاري المؤرق: لماذا تتأخر الأمـة الإسلامية وتتقدم غيرهـا مـن الأمم الأخرى؟ ولسان حاله يقـول: هل نعي إلى أين نسـير، أم حسبنـا من السير أننـا نسير وكفى؟، إشـارة مباشرة إلى السـير على غير هدى ومن غير منهج واضح يستحضر سنة النبي الكريم في التغيير، ويستلهمها ويبني عليها نحو تحقيق أمة الشهـود الحضاري كما وصف الله تعالى بذلك أمة «الوسط» في كتابه الكريم.

إن السير بغير تخطيط وبغير منهج واضح المعالم هو ما ينقص الأمة الإسلاميـة اليوم لتحقيق نهضتهـا الثانية ومزاحمة الأمم الأخرى في أفق تحقيق الريادة المطلوبة لأمة الوسط، حيث تعيش جميـع شعـوب الأرض في سلام وعـدل وتعاون وتعـارف، لا في عالم يأكل القـوي فيه الضعيف ويستبد فيه القوي بخيرات البر والبحر، ويحرص على تعميق درجات الفقر والبون بين من يملك ومـن لا يملـك. وهذا الأمـر لا يمكن أن يتحقق، كمـا يؤكد ذلك الباحث الطيب برغوث في هذا الكتاب، ما لم يستحضر العاملون

في مختلف المجالات تجربة الرسول الكريم في التعامل مع كل المستجدات الطارئة على الأمة وقتئذ، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو غير ذلك، على اعتبار أن الوعي بالمنهج، كما يقول الباحث، باعتباره آلية للفهم والوعي والإنجاز والوقاية، هو «المدخل الأساس لفهم السنة النبوية والاستفادة منها في التأسي الموضوعي بالنبي صلى الله عليه وسلم والاستثمار المستبصر لسنته المباركة في تأصيل وتفعيل حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة». وهكذا يرسم هذا الكتاب معالم واضحة ومنارات كبرى على درب إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية في سعينا الدؤوب نحو تحقيق إعادة بعث الأمة من جديد.

ولكي يقرب الباحث هذا المنهج إلى أذهان القراء والباحثين والمفكرين، فإنه لم يقتصر فقط على جمع المادة الحديثية أو القرآنية الخاصة بواقعة من الوقائع الحياتية المنظمة لحياة الناس عامة وما قاله صلى الله عليه وسلم فيها أو ما نزل فيها من وحي، بل عمد إلى دعم قوة المنهج الذي يقترحه بالوقوف عند بعض المحطات المفصلية في مسلسل الأحداث المتوالية التي كانت تحدث للرسول الكريم ومعه أمته، وبيان كيف تعامل معها، وكيف انعكس هذا التعامل الإيجابي على مسيرة الأمة من حيث تغليب منطق الربح على منطق الخسارة في كل الأفعال والمحطات، وموضحا في الوقت نفسه كيف يمكن للأمة، على ما هي عليه الآن، أن تنطلق من جديد لترجمة هذا المنهج إلى واقع معيش تحقق به جوهر وماهية «أمة الوسط» من حيث الشهادة على الناس، وأداء رسالتها إلى كل شعوب العالم.

وينطلق الباحث الطيب برغوث في كتابه هذا من قاعدة حضارية تحكم سنن التغيير الاجتماعي عامة، بغض النظر عن ماهيته وجوهره، فيقرر أن «الواقع لا يرتفع» ولا يحابي أحدا، وأن

من أخذ بسنن النصر والغلبة والتفوق تفوق وكان له ما أراد، ومن لم يأخذ بشروط التفوق ليس له إلا أن يزداد تخلفا عن مستوى الأمم المتحركة والمتقدمة التي تكد وتجتهد وتخطط لتبقى دائما رائدة لكل الأمم الأخرى.

ويسر قطاع الشؤون الثقافية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن يقدم للقراء الكرام هذا الكتاب ضمن الإصدار الثاني من إصدارات «آفاق» داعيا المولى عز وجل أن يحقق به النفع المنشود. إنه سميع مجيب.



تقديم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

وبعد: يسرني أن أقدم لإخواني القراء هذه الرسالة المتواضعة عن «إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية»، التي حاولت فيها أن أبرز الدور الحيوي للمنهج في فهم معطيات السنة النبوية ابتداء، واكتشاف أسرار الفاعلية الذاتية لهذه السنة ثانيا، وكيف يمكننا نحن أن نستفيد ثالثا، من استثمار هذه القوة أو الفاعلية الذاتية فيها، لتحقيق شروط الأصالة والفعالية والاطراد في أدائنا الفكري والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري؛ أفراداً، ومؤسسات، ودولاً ومجتمعات وأمة، باعتبار أن «المنهج أساس القوة وسر النجاح»، وهي الأطروحة الفكرية والتربوية التي تنطلق منها هذه الرسالة المتواضعة.

فالمنهج، كرؤية عقدية ومعرفية متماسكة، وكخبرة تسخيرية متجددة ومنفتحة على الوعي السنني المتكامل؛ في أبعاده العقدية والفكرية، والفنية أو الإجرائية، ضرورة حيوية لأصالة الفهم، ودقة الاستشراف، وفعالية التسخير والإنجاز، وإمكانية الوقاية والاستدراك، واطرادية الإنجاز الحضاري وخصوبته الروحية والأخلاقية، واتجاهه نحو آفاق العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية في نهاية المطاف، باعتبارها آفاقا كلية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

كيف نكتسب المعرفة الصحيحة بالله والكون والحياة والإنسان؟ وبسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد؟ وبسننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد؟ وبسننه في الأصالة والفعالية والاطراد؟ وبسننه في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة الوقائية؟ وكيف نفهم أنفسنا وواقعنا وعصرنا على ضوء هذه المعرفة السننية المتكاملة؟ وكيف نغير أنفسنا وواقعنا ونطابقهما بأصالة وفعالية واطراد مع واقع هذه المعرفة؟ وكيف نراكم خبرتنا الحضارية ونحافظ عليها،

ونحمي منجزاتها؟ هذا هو المنهج، وهذه هي وظيفته، وهذا سر قوته، وهذا هو وجه الحاجة الملحة إليه.

وعليه، فإن المنهج يعتبر أقصر طريق للمعرفة الصحيحة وأضمنها، ومن ثم، للإنجازية الفكرية والسلوكية والاجتماعية الأصيلة الفعالة المطردة، التي تمنح الفرد والمجتمع والأمة.. قدرات تسخيرية متزايدة، لتلبية حاجاتهم في خضم معتركات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، ومواجهة تحدياتها المتلاحقة بلا انقطاع، لترفع مجتمعات وأمما إلى مواقع المواكبة أو المنافسة أو الريادة الحضارية، ولتدفع بأخرى القهقرى نحو مستنقعات الضعف والتخلف والغثائية والتبعية الحضارية المهينة، إمضاء لسنة الله في مداولة القوة والتمكين والقيادة الحضارية بين البشر. كما نبه على ذلك القانون القرآني في قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (آل عمران: 140).

فمن تحكم في المنهج فقد تحكم في سر القوة الضاربة في الحياة؛ لأن المنهج هو قانون القوة وسر النفوذ والنجاح، وهو جوهر الحكمة والبصارة، كما نبه على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (البقرة: 269).

وما أوتينا نحن المسلمين – أفراداً، ومؤسسات، ومجتمعات، وأمة – في اضطراب وعينا الفكري، وتنافرية أدائنا السلوكي والاجتماعي، وخفة وزننا في المعترك الحضاري، إلا من ضعف وعينا بالمنهج ونظرياته المحكمة، ومن قلة اهتمامنا به، وزهدنا فيه، وشغفنا بالمفردات

الجزئيــة الخاميّة المتناثرة في الحقـول المعرفية المكتنزة في منظومات سـنن الله في الآفاق، وسننه في الأنفس، وسننه في الهداية، وسننه في التأييد، الموضوعة جميعها في خدمة الخلافة البشرية.

وبالرغــم مــن أن السنة النبوية علمتنا سنــة التجديد عامة، وسنة تجديد الدين في واقع المجتمع والأمة خاصة، التي يحتل فيها تجديد الوعــي بالمنهــج مكانة محورية، كما جــاء في حديث قانــون الدورات التجديدية المطردة: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مــن يجدد لها دينهــا) (صحيح أبي داود برقــم/ 4291)، فإن الكثير مــن جهود التجديــد لا تتجه نحو تجديد الوعي بالمنهج بقدر ما تتجه نحو تجديد فروعه الفقهية المتناثرة، وفروعه الأخلاقية أو السلوكية، وفروعــه الاجتماعية.. ثم تكتشف بعد عناء ومكابدات منهكة ومكلفة اجتماعيا وحضاريا، أنها كانت تبني على أرضية فكرية ومنهجية غير مجــدَّدة في ذاتها، فأنــى لها أن تقوى على تجديد مــا سواها! وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقال.

لهذا أستطيع أن أقول بكل اطمئنان بإن «إشكالية اضطراب المنهج» في أبعــاده العقدية والفكرية والفنية والأخلاقية، تحتل مكانة مركزية في تفســير المآلات الخائبة لمســيرة النهضة الإسلامية المعاصرة، التي لم يرتكز فيها الإصلاح على التجديد المنهجي المتكامل، وانجرف وراء إصلاح مفرزات وأعراض الفوضى المنهجية المستحكمة، التي ضربت أطنابهــا في المنظومات الفكرية والثقافيــة والاجتماعية والسياسية.. للفرد والمجتمع والدولة والأمة.

والخــبرة السننيــة المنهجيــة الكليــة للتغيــير الثقــافي، والإصلاح الاجتماعــي، والتجديد الحضاري، تؤكــد لنا بما لا يدع مجالا للشك بأن:

● التغيير الثقافي والاجتماعي والحضاري؛ الأصيل والفعال والمطرد، هو باستمرار محصلة تغيير ثقافي أصيل وفعال ومطرد.

● التغيير الثقافي الأصيل الفعال المطرد، هو باستمرار محصلة تغيير تربوي متوازن ومتكامل وفعال ومتجدد.

● التغيير التربوي الأصيل والفعال والمطرد، هو باستمرار محصلة تغيير منهجي أصيل وفعال ومطرد.

● التغيير المنهجي الأصيل والفعال والمطرد، هو باستمرار محصلة وعي سنني شمولي تكاملي متوازن، وأصيل وفعال ومتجدد.

وكما هو واضح من معطيات هذه المتوالية المعرفية السننية المتكاملة، فإن المنهج يحتل مكانة محورية شارطة لكل تغيير ثقافي، أو إصلاح اجتماعي، أو تجديد حضاري في المجتمع والأمة، وقبل ذلك، فإن المنهج يحتل مكانة محورية في أي عملية موضوعية فعالة لتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية والحضارية وتفسيرها، واستشراف آفاق تطوراتها المنظورة.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار المكانة المحورية لقانون تجديد الدين في المعادلة الكلية للتغيير والإصلاح والتجديد الثقافي والاجتماعي والحضاري، كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفا، أمكننا أن ندرك فعلا محورية المنهج والوعي المنهجي في التجديد الديني ومن ثم في التجديد الحضاري. فنحن بالخصوص كأمة قامت على كتاب، وارتبطت نهضتها وريادتها وقوتها الحضارية، وضعفها وتقهقرها وتخلفها الحضاري، بمدى نجاحها أو إخفاقها في عملية تجدّدِها الديني ابتداء، فهو مفتاح ومنطلق التجديد الحضاري للأمة باستمرار. فهي تنهض ويستحكم سلطانها في الأرض كلما نجحت عملية تجديد الوعي الديني المستنير فيها، وتذبل حيويتها ويتراجع نفوذها كلما أخفقت أو تأخرت عملية التجديد الديني فيها.

والسـؤال المنهجـي هو: هـل يمكن أن نجـدد الوعي بالديـن، وأن نستفيـد من استثمار معطياته الهائلـة في التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعـي، والتجديد الحضاري للمجتمع والأمة، بمعزل عن الوعي بالمنهـج العضـوي للدين ذاته؟ وهو السنـة النبويـة أو المنهج النبوي، باعتباره المنهج الـذي نقل لنا حقائق القرآن ووضعها موضع التطبيق العملي والفكري والمنهجي والسلوكي والاجتماعي.

والجـواب المنطقـي هو أن تجديد الوعي بالديـن، وامتلاك القدرة علـى استثماره بأصالة وفعاليـة واطراد، لا يمكن بغير وعي معطيات المنهـج الأصلـي أو العضوي الـذي يختزنه الدين ذاتـه؛ في مصدريه المعرفيـين الأساسيـين المتكاملـين وهمـا الكتـاب والسنـة، ثـم يأتي بعدهمـا، بدرجات متفاوتـة، رشد التراكم المعـرفي السنني الذي دار حـول فهمهمـا واستثمارهما الثقـافي والاجتماعـي والحضاري، مع الأخذ بعين الاعتبار مؤثـرات الزمان والمكان والسقف الثقافي للجهد الاجتهـادي البشري مهما كانت عبقريتـه الإبداعية؛ لأنه يبقى نسبيا ومحدودا باستمرار، بخـلاف النفَس المقاصدي والسنني للوحي فإنه يظل محافظا على فاعليته ومعاصرته بل واستشرافيته المتقدمة على العصر بشكل مطرد.

فالوعـي بطبيعة المنهج النبوي وخصائصـه وثوابته وتطبيقاته؛ في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، شرط أساسي لنقل العلاقة بالقـرآن والسنـة والسـيرة النبوية، مـن مستواها التاريخـي النقلي الوصفـي التجريدي المثالي التنافري أحيانـا، إلى مستواها التحليلي التركيبـي السنني المقاصـدي الحيوي التكاملي، الـذي يجعل المسلم ينفتح على شروط ومستلزمات نظرية «التدافع والتجديد» التي تحكم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، ويكيِّف نفسـه مع معطياتها بشكل ملائم، يتيـح المزيد من الأصالة والفعالية والاطراد لأدائه الفكري والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري.

فتمكين أجيال الأمة عامة والنخب الرسالية النوعية المعاصرة فيها خاصة، من الانفتاح المعرفي والتربوي والتسخيري المنهجي المتكامل، على طبيعة المنهج النبوي وخصائصه وثوابته وتطبيقاته، من شأنه أن يحرر طاقات هذه النخبة، ويصلها بسر القوة غير العادية التي ترفع مستوى فعالية أدائها الاجتماعي بشكل نموذجي، من خلال توجيهها إلى الاستثمار الشمولي المتكامل لكل المعطيات السننية التي يتيحها الوعي بمنظومات سنن الله في الآفاق، والأنفس، والهداية، والتأييد، والتي كثيرا، بل غالبا، ما تعجز النماذج المنهجية التجزيئية عن تحقيق الانفتاح التسخيري الشمولي التكاملي عليها جميعا، ومن ثم يظل استثمارها لمعطيات هذه المنظومات السننية جزئيا وتنافريا ومحدود الفعالية الاجتماعية، في الوقت الذي يفرض فيه منطق سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد - المهيمن على حركة الاستخلاف البشري في الأرض - فعالية اجتماعية كبرى، من أجل تحقيق حركة الإقلاع الحضاري، أو المواكبة الحضارية، أو المنافسة الحضارية، أو الريادة والإمامة الحضارية، على ضوء المرحلة الحضارية التي يكون فيها المجتمع أو الأمة.

ولما كان الوعي بالمنهج النبوي يحتل هذه المكانة المحورية في تكوين هذه النخبة الرسالية ابتداء، وفي تمكينها من أصالة وفعالية الأداء الاجتماعي ثانيا، وفي المحافظة على حالة الصحوة الروحية والاجتماعية للمجتمع والأمة ثالثا، وفي ضمان سير حركة النهضة الاجتماعية والحضارية للمجتمع والأمة على خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية رابعا، فقد أخذ حظه من هذه الرسالة، سواء على مستوى تأكيد أهميته، أو على مستوى تحديد معالمه وثوابته الكلية المطردة، أو على مستوى تطبيقاته العملية، أو على مستوى كيفية وشروط استيحائه في ترشيد حركة النهضة الإسلامية المعاصرة.

في هذا الإطار، وبهذا النفس، وفي هذا الأفق المعرفي التربوي المتكامل، تتحرك هذه الرسالة، لتعمّق الوعي بأطروحة «المنهج

أساس القوة وسر النجاح»، وتتضح بعض الشروط المعرفية والتربوية والمنهجيـة للاستفـادة منها، في تحقيق الاستثمـار السنني المقاصدي المنضبـط للسنة النبوية، للوفاء بشـروط ومستلزمات حركة «التدافع والتجديـد» التـي تحكـم مسـيرة أيـة نهضـة حضاريـة في التاريخ، وتتحكـم في صيرورتهـا الصاعدة أو المتقهقـرة بشكل مطرد لا يتبدل ولا يتغـير ولا يتعطـل، كمـا يؤكـد ذلك القـرآن في مثـل قوله تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: 40).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 251).

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: 62).

فالتدافـع بـين الأفـكار والقيـم والمناهـج، والمشاريـع الثقافيـة والاجتماعيـة والحضارية، والإرادات التي تقف وراءها؛ بغية تأسيس عمليـة الإقـلاع الحضاري، أو تحقيـق المواكبة الحضاريـة، أو تعزيز فعالية المنافسة الحضارية، أو التدافع وفعاليته واطراديته، أو تذبذبه وضعفه وتقهقره، يرتبط على الدوام بسنة التجديد، حيث كلما تمكّن فـرد أو جماعـة أو مجتمع أو أمة من تحقيق تجديده الذاتي؛ الشامل والمتكامل والمتوازن والمطرد، قوي دفعه الاجتماعي والحضاري، وأمكنه الوفاء بحاجات مرحلة التطور الحضاري التي هو فيها، والسير قدما نحـو مرحلـة التطور التاليـة. وكلما عجز فرد أو مجتمـع أو أمة عن تحقيـق تجدده الذاتي المطلوب، ضعف دفعه الاجتماعي والحضاري، وعجـز عن الوفاء بحاجات مرحلة التطـور الحضاري التي هو فيها، واضطـره ضغط التدافـع إلى التقهقر في اتجاه المرحلـة التي دونها،

كما شرحنا ذلك في نظرية «التدافع والتجديد» في كتابنا: «مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية».

والسنة النبوية، بما هي ترجمة عملية شاملة للقرآن في واقع الحياة، تضع أمامنا تجربة نموذجية فذة في استيعاب سنة «التدافع والتجديد» في حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، التي غيّر من خلالها واقع المجتمع الجاهلي التقليدي، وبنى مكانه مجتمعا إسلاميا عالميا إنسانيا كونيا عابدا لله، كما سنرى في هذه الرسالة.

بقي أن نشير إلى أننا لم نكتف في هذه الرسالة بمحاولة استخلاص معالم المنهج النبوي وثوابته في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة فحسب، بل حاولنا كذلك العناية الكبيرة بالجانب التطبيقي العملي لقواعد المنهج المستخلصة، فذكرنا نماذج تطبيقية كثيرة من السنة والسيرة النبوية لكل قاعدة منهجية، ولم نكتف بهذا، بل تجاوزناها إلى الاستفادة من الدراسات السابقة، فأخذنا نصا فقهيا في منهج الفهم والاستثمار الموضوعي للسنة النبوية من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، كنموذج تطبيقي إضافي معمق، يؤكد لنا بشكل علمي تحليلي منهجي مؤصل، مدى سعة ومرونة مجال الحركة والاختيار الذي تتيحه معطيات السنة النبوية لمستثمرها، عندما يتاح له وعي متكامل بقواعد المنهج، وقدرة على التحكم في معطياته، ويتحرر من أسر الحرفية الحدِّية وقيودها، والتجزيئية التنافرية، والانتقائية التلفيقية، والذوقية المائعة، وينفذ إلى عمق المقاصدية الموضوعية التي هي روح المنهج وسر قوته.

وتعمدت إثبات هذا النص رغم طوله بعض الشيء، لأؤكد سعة ومرونة المنهج في السنة النبوية أولا، كما أسلفت، كما أؤكد الحضور القوي للمنهج في فقه هؤلاء العلماء الأعلام، الذين جنت على بعض تراثهم الاتجاهات الحرفية والتجزيئية والتلفيقية، وغطت أو شوشت كثيرا على عمق المنهج وأصالته في دراساتهم.

وأرجو أن أكون بهذا النص قد لفت الانتباه إلى ضرورة العناية بالمنهج في تعاطينا مع تراث هؤلاء الجهابذة، حتى نخرجه من بحر الوعظية العاطفية، والفروعية الفقهية، العرفية أو التاريخية التي سجنتهم فيها العقلية الحرفية والتجزيئية والوعظية، وأظهرتهم للأجيال وكأنهم أناس ذاهلون عن قيم المقاصدية والموضوعية في المنهج.

فاقتلاع فتاوى ومواقف ومبادرات أي عالم من إطارها الثقافي والاجتماعي والسياسي والحضاري التاريخي، ونقلها إلى إطار ثقافي واجتماعي وسياسي وحضاري مختلف أو مغاير جزئيا أو كليا، يسلب تلك الفتاوى والمواقف والمبادرات الكثير من أصالتها الفكرية، وفعاليتها الوظيفية، ويحولها إلى عوامل توتر وتنافر أو إلى معطيات وعناصر مميتة كما يقول مالك بن نبي رحمه الله في نظريته عن «الأفكار الميتة والأفكار المميتة»، وهو ما يسيء إلى شخص العالم وتراثه وامتداد إشعاعه في الأجيال، خاصة إذا كان هذا العالم عاملا ومنغمسا في هموم واهتمامات مجتمعه وأمته وعصره، حيث يكون تأثير الواقع عميقا جدا في فتاويه ومواقفه ومبادراته، فإذا لم يراع ذلك في التعاطي مع تراثه، كانت الطامة الكبرى، وتحول تراثه إلى عامل إثارة وتوتر سلبي، وأصبح هو خصما لفئات واسعة في المجتمع والأمة بل والعالم! كما حدث مع ابن تيمية على سبيل المثال؛ حيث أذكر هنا أن بعض كبار رجال الفكر والأمن في بلد أوروبي سألوني مرارا: من هو ابن تيمية؟ وما هي الوهابية؟ وهل ما يقال عنهما صحيح؟ وهل عندكم هنا في مدينتكم أتباع لهما؟! بسبب ما يُنقلُ وما يُروَّجُ وما يُستثمَرُ من فتاويهما العرفية التاريخية، من غير التفات إلى الشروط الموضوعية لنقل وتداول الأفكار والخبرات التاريخية بين المجتمعات والأجيال.

ولا شك أن هذه قضية مفصلية من قضايا المنهج والوعي المنهجي التي تتعرض لها هذه الرسالة، من خلال محاولة دراسة المنهج النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة.

وفي الأخير نسأل الله تعالى أن يفقهنا في المنهج، وأن يلهمنا مراشد أمورنا، ويسدد على طريق النهضة الحضارية الإسلامية خطانا، وأن يعفو عنا ويرحمنا.

الطيب برغوث

النرويج يوم: الجمعة 16 صفر 1427هـ

الموافق: 17 مارس 2006م



مدخل

في البداية أود أن أصيغ إشكالية البحث في مجموعة مترابطة من الأسئلة أو الإشكالات المحورية التي تثيرها العلاقة المعرفية والوظيفية أو التسخيرية بالسنة النبوية خاصة، وما يلحق أو يتصل بها من سيرة بصفة عامة، باعتبارها، أي السيرة، تلقي المزيد من الأضواء على الكثير من الجوانب المتحركة في المنهج النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة •.

- إذا كان الدين عامة يشكل ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم فيها [1]، ويستحيل عليه أن يستغني عن هدايات الدين بأي حال من الأحوال.

- وإذا كان الإسلام هو خلاصة الوعي الرسالي المتكامل وخاتمته، الذي جاءت به النبوات كلها، وتكامل جهد الرسالات من أجل بنائه، ووضع حقائقه بين يدي بني البشر.

- وإذا كان القرآن هو مرجعية الإسلام، التي لا يمكن أن يفهم الإسلام، ولا يمكن أن تفهم فلسفة الخلافة البشرية في الأرض على وجهها الصحيح إلا من خلاله.

- وإذا كانت السنة النبوية الصحيحة، هي المنهج المعرفي والعملي المرجعي الأم، لفهم مقاصد القرآن، وشرح حقائقه، وإحكام عملية

• أقصد بالمواجهة في هذه الخماسية السننية المتكاملة، منظومة التدابير الوقائية الفعالة التي تعتمدها الصحوة أو المجتمع أو الدولة أو الأمة.. لتحقيق الحماية الاستراتيجية المبكرة أو المرافقة أو الاستدراكية.. لمسيرتها من التعطيل، ولمنجزاتها من الهدر والتبديد، وتأمين الشروط الموضوعية لاستمرارية اندفاعها المتوازن نحو أهدافها وغاياتها؛ في الإقلاع الحضاري، أو المواكبة الحضارية، أو المنافسة الحضارية، أو الريادة الحضارية الفاعلة، وتحقيق التراكمية المعرفية والإمكانية المطلوبة، التي تمنح التغيير المزيد من الأصالة والفعالية والاطراد.

(1) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية/ 360.

تنزيلها على واقع الحياة والذي دونه - أي المنهج - لا يمكن أن تُستوعب هذه المقاصد، أو أن تُدركَ هذه الحقائق، أو يُستفاد منها في تأصيل حركة تجديد الأمة، وتفعيل أدائها في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري.

- وإذا كان وعي المنهج، باعتباره آلية الفهم والوعي والإنجاز والوقاية معا، هو المدخل الأساس لفهم السنة والسيرة النبوية، والاستفادة منهما في عملية التأسي الموضوعي بالنبي عليه الصلاة والسلام، والاستثمار المستبصر لسنته المباركة في تأصيل وتفعيل حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة.

- وإذا كان غياب أو اضطراب الوعي بالمنهج في العلاقة بالسنة النبوية يؤدي حتما إلى إغراق عملية التأسي والاستثمار العملي لمعطيات وبركات السنة في متاهات التأسي الآلي الذي تطبعه الاستثمارية الشكلية المتنافرة، أو دوامات التأسي الانتقائي المميع، الذي تطبعه كذلك الاستثمارية التجميلية المتهافتة، أو صرعات التأسي الذوقي المنفلت، الذي تهيمن عليه الأحوال الذوقية المزاجية المتقبلة لأصحابها [2]، ومن ثمة الإساءة البالغة لعظمة السنة وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام خاصة، وعظمة الإسلام عامة!.

- وإذا كانت الإساءة لعظمة السنة هي إساءة حتمية لعظمة القرآن والإسلام عامة، ومن ثمة إساءة حتمية، بالضرورة، لأصالة حركة نهضة الأمة وتجددها الحضاري المتوازن، وحكمٌ عليها بالازدواجية والتنافرية والاهتلاكية والإمعية في نهاية المطاف، بسبب الاستقطاب الفكري والاجتماعي والسياسي التنافري الذي تعيشه النخبة أولا، ثم تفرضه على المجتمع والأمة بعد ذلك ثانيا، وهو ما يجسده فعلا

---

(2) انظر للمؤلف: الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية/ ص 38 (ط 2 كوالالمبور 2003).

الطـرح التنافـري لمفاهيم الأصالـة والمعاصرة، والهويـة والاستلاب، والتقليـد والتجديـد، والإسلاميـة والعلمانية.. في واقـع المجتمعات الإسلاميـة المعاصـرة، التـي أصبحـت تتحـرك بنفسـين متناقضين اهتلاكيين منهكين.

- إذا كان الاستيعـاب المتكامل للمرجعية الثقافية للمجتمع والأمة، مـن قبـل نخبتهما الفكريـة والسياسية وقاعدتهمـا الاجتماعية، هو الشـرط المركزي لأصالـة وفعالية الإقلاع الحضـاري. وكان الميراث النبـوي يشـكل بـؤرة هذه المرجعيـة الثقافية، كما جـاء ذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه) [3]. ونبه القرآن على خطورة الغفلة عن ذلك أو التهميش له في مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: 63). فما هي يـا ترى معالم المنهـج النبوي وثوابته الكلية، التي يجب أن تستوفى في أيـة عملية تأسي بالسنـة أو محاولة استثمار لها في التأصيل العقدي والفكري والمنهجي لحركتنا المعرفية والتربوية والثقافية والاجتماعية والسياسية والحضارية، حتى تحتفظ دوما بألقها الروحي، واستنارتها الفكرية، وفعاليتها الإنجازية والوقائية؟

في بعض المفاهيم المركزية للدراسة

ونظـرا إلى أن مفاهيـم التأسي الآلي، والتأسـي الانتقائي المميع، والتأسـي الذوقـي، والتأسي الموضوعي.. تعتـبر مفاهيم محورية في العلاقـة الاستثماريـة بالسنـة النبوية من ناحية، كمـا تعتبر مفاهيم مركزيـة في هـذه الرسالة من ناحية أخرى، فقـد رأينا أن نشير إليها في البدايـة رفعا لأي التباس، وبحثا عن الاستيعاب المعرفي والتربوي المطلوب لمقاصد هذه الرسالة وأهدافها.

---

(3) موطأ مالك/ 1395 (ط، دار النفائس، بيروت 1407هـ - 1987).

مفهوم التأسي

التأسي معناه الاقتداء والمتابعة المستبصرة لمن نعتقد بأنه حاز بعض صفات التميز والقوة والكمال البشري، في فهمه وتفكيره، أو في سلوكه وأدائه الاجتماعي، أو في علاقاته بالآخرين، أو في تأثيره فيما حوله، ونجاحه في تحرير مكانة مرموقة في مجتمعه وأمته وعصره.

وبصفة عامة، فإن التأسي يعبر عن نوع من السلطة الفكرية والنفسية والروحية العميقة، التي تحمل المتأسي على الاقتداء بغيره والمتابعة له، والتي قد تبلغ أحيانا درجات عالية من الحرفية والآلية المعطلة لكل رغبة في التجديد الذاتي، أو قدرة على تلبية حاجات النفس والمجتمع، ورفع التحديات التي تحيط بهما، وتمتهن كرامتهما، وتهدد وجودهما.

القدوة العليا في حياة المسلمين

ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد اجتمعت فيه من الخصال والفضائل والكمالات البشرية ما لم تجتمع في غيره من الناس، فقد أصبح هو القدوة العليا النموذجية في حياة المسلمين، سواء بحكم دعوة الشرع لهم إلى ذلك، أو بحكم إعجابهم غير المحدود بالكمالات التي اجتمعت في شخصية النبي عليه الصلاة والسلام، واكتملت في منهجه في فهم الإسلام وتطبيقه، كما سنرى ذلك لاحقا [4].

ويتضمن التأسي هنا مفاهيم مماثلة عديدة كلها في حاجة إلى الابتعاد بها عن الفهم الآلي والتجزيئي والذوقي.. والاقتراب بها قدر الإمكان من الفهم الموضوعي أو المقاصدي المنضبط، على مستوى

---

(4) انظر: الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية للترمذي، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وزاد المعاد لابن القيم على سبيل المثال.

الفهـم والممارسـة معـا، وهي على سبيـل المثال: المتابعـة، والاقتداء، والموافقـة وعـدم المخالفة له عليـه الصلاة والسلام فيمـا أمر به أو نهـى عنه، أو ندب إليه (5)... باعتباره المرجع الأعلى الوحيد المعصوم في الأمـة كلهـا، فيمـا يتصـل بتحقيـق العبوديـة لله تعـالى والوفاء بواجبات الاستخلاف في الأرض؛ سيادة وتمكينا وشهودا، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: 124).

وقد أجمع العلماء على أن المقصود «بالهدى والذكر» هنا هو الوحي أي الرسـالات وهدي الرسل (6)، التي انتهى أمرها جميعا إلى الختم بالقرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة: 48).

قـال ابـن كثير بعـد أن ذكر العديد مـن الأقوال المأثـورة في الآية: «وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن ذلك كله، فهـو أمـين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبلـه، جعل الله هذا الكتاب العظيـم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمهـا وأشملها وأعظمها وأكملها، حيـث جمع فيه من محاسن ما قبلـه، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها» (7).

---

(5) محمد العروسي عبدالقادر، أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالتها على الأحكام، ص: 27.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 4/ 544.
(7) نفس المرجع، 2/ 587.

وفي الحديث الذي رواه الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فقال: «لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» (8).

ومن جيد ما عقب به ابن باديس على هذا الحديث العظيم قوله: «إن الله يجمع الناس كلهم على شريعته جمعا تشريعيا، فلا يقبل من أحد شيئا إلا باتباعه في شريعته، ولا نجاة لمسلم من ضلال البدعة إلا باتباع سنته.. ويفيد المضارع في قوله «يحشر» أن هذا الجمع متجدد، لأن شريعته دائمة وسنته باقية، فما من جيل إلا وهو مكلف بالسير على قدمه... فلا نقول ولا نعمل ولا نعتقد إلا ما لا يخرج عنهما، فيكون قولنا دائما: ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم؟ وماذا فعل؟ وكيف كان مثل هذا الموقف في مثل هذه الحال، في كل ما نقفه من مواقف، وما يعترضنا من أحوال» (9).

في أشكال التأسي واتجاهاتها

والمشكلة المطروحة هنا في العلاقة الاقتدائية بالنبي عليه الصلاة والسلام، تكمن في مفهوم ومقاصد التأسي والمتابعة والاقتداء ذاتها أولا، ثم في كيفية أو منهجية هذا التأسي والاقتداء ثانيا، حيث يمكن هنا ملاحظة أربعة أشكال أو اتجاهات من المتابعة والتأسي على سبيل المثال، وهي: التأسي الآلي، والتأسي الانتقائي المميع، والتأسي الذوقي، والتأسي المقاصدي أو الموضوعي، وسنحاول إلقاء بعض الأضواء عليها باختصار.

---

(8) البخاري برقم/ 3296.

(9) ابن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، 322، 326.

أو الحرفي الظاهري الشكلاني السكوني، الذي يحرص على إيقاع صور الأعمال والسلوكات كما كان يوقعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحذافيرها، دون التفات إلى ما هو تشريعي وغير تشريعي في سنته وسيرته عليه الصلاة والسلام، وما هو من التشريع العام المطلق الدائم الذي يخاطب به الناس في كل زمان ومكان، وما هو خاص بحالات جزئية ظرفية معينة، وما تصرف فيه بصفة الإمامة والرئاسة أو بصفة القضاء والفتوى [10]، وما جرى مجرى مراعاة عادة البيئة المحيطة به، حيث يتم مراعاة أحوال الناس وظروفهم، وعادات البيئة وتقاليدها وأنماط حياتها، في المعايش والملابس ونظم الإدارة والتسيير وغيرها.

يقول العلامة رشيد رضا: «ليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا يتعلق به حق لله تعالى ولا لخلقه، لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة، كالعادات والصناعات والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث، وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء «إرشادا لا تشريعا» إلا ما ترتب على النهي عنه وعيد كلبس الحرير.

وقد ظن بعض الصحابة رضي الله عنهم أن إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع كتلقيح النخل، فامتنعوا عنه فأشاص فراجعوه في ذلك فأخبرهم أنه قال ما قال عن ظن ورأي لا عن تشريع، وقال لهم: (أنتم أعلم بأمور دنياكم...) وحكمته تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية، كالزراعة والصناعة لا يتعلق بهذا لذاتها تشريع خاص، بل

---

(10) القرافي، الفروق، 1/ 206، القرضاوي، الجانب التشريعي في السنة النبوية (أوراق ندوة السنة النبوية ومناهجها في بناء المعرفة والحضارة، عمان 1989، م2/ 976).

هي متروكة إلى معارف الناس وتجاربهم [11]، بشرط أن لا تصادم ثوابت الوحي أو تتعارض مع مقاصده في الخلق.

ولا يخفى ما في هذا النهج الآلي الحرفي من مخاطر على القصد التعبدي ذاته، وعلى آثاره السلوكية والاجتماعية؛ وعلى الإسلام نفسه كمرجعية حاكمة وموجهة للأمة، وعلى حركة التجديد وعملية البناء الحضاري في نهاية المطاف.

فالنية وسلامة القصد، وخلوص الوجهة لله تعالى وابتغاء مرضاته بعملية التأسي، لا تكفي وحدها ما لم يرافق ذلك «صواب إيقاع التأسي»، بل إن تمحيض النيات وإخلاص المقاصد لله تعالى ذاتها، وفق الضوابط الشرعية وموازينها الدقيقة، في حاجة إلى معرفة كذلك، أي إلى وعي بالمنهج الذي يحقق مقاصدها العقدية والروحية والسلوكية والاجتماعية؛ لأن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا وصوابا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، كما نبه على ذلك جهابذة المنهج مثل الفضيل بن عياض في مقولته الرائعة هذه [12].

ولأمر يتصل بتجاوز التأسي الآلي إلى التأسي الموضوعي، حسم القرآن الأمر بوضوح في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: 108) أي على وعي تام ودراية بما تستلزمه الدعوة كعملية تغيير، من بلاغ وقدوة وبناء ومواجهة، وحماية لكل ذلك وضمان لاطراده، وما يستدعيه هذا من معرفة عميقة بالإسلام، وإحاطة بالواقع الإنساني الذي تتحرك فيه

---

(11) رشيد رضا، تفسير المنار، 9/ 303.

(12) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم/ 452 (دار المعرفة، بيروت، د.ت).

الدعوة، وفقه لسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وتحكم في مناهج الإنجاز.

فهي – أي الدعوة – كما يقول ابن القيم: «لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد من كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد أقصى ما يصل إليه السعي» (13).

وعليه فإن التأسي الآلي الذي يتمحور اهتمامه حول الأشكال الصورية أو الظاهرية للأفعال والمواقف النبوية، ويذهل عن المنهج الذي تشكلت به هذه الأفعال وصيغت به هذه المواقف، وأخرجت للناس في صورتها المركبة الأصيلة المؤثرة، تأسٍّ غير مجد، لأنه يسيء إلى الإسلام ذاته ولا يخدم حركة تجديده، بل يفوت عليه فرصا ثمينة، ويزهّد الناس فيها، وربما ألّبهم عليها ودفعهم إلى الانضمام للحركات المناوئة لها.

مفهوم التأسي الانتقائي المميع

وعكس التأسي الآلي أو الصوري السكوني أو الوتيري، نجد هناك نوعا آخر من التأسي الشكلي كذلك، قائماً على الانتقائية المتناقضة المفككة أو التلفيقية الهجينة، التي يسعى أصحابها إلى الانتقاء من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله ومواقفه ما يرونه يخدم أغراضهم، ويسوغ توجهاتهم ومسالكهم الفكرية والسلوكية والسياسية.. ويزينون بها أحاديثهم أو أعمالهم وسياساتهم، بعد أن يفرغوها من محتواها الحضاري ويبتروها منه.

وأكثر من يستعمل هذا التأسي الانتقائي التلفيقي أهل «البوليتيك»● وخاصة دعاة العلمنة منهم، على اختلاف اتجاهاتهم وتعدد مواقفهم

---

(13) ابن القيم، التفسير القيم/ 319 (تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت 1978).

● البوليتيك مصطلح شعبي يستعمله الجزائريون بمعنى التدجيل والمراوغة السياسية، ويعود الفضل لمالك بن نبي الذي التقطه من عمق الثقافة الشعبية ليدخله في حقل الدراسات الحضارية، وخاصة منها ما يتصل بظاهرة التخلف الحضاري وما يلازمها من انقلابات في المفاهيم.

الفكرية والسلوكية في عصرنا هذا، حيث يعتمدون، في سياق تهميش الأبعاد السياسية والحضارية للإسلام، وتطويعه للمفاهيم الغريبة الدخيلة، على توسيع مجال الحديث عن الاجتهاد والعقلنة والانفتاح والتسامح.. بصورة انتقائية متناقضة تكاد تميع طبيعة الإسلام وتمسخ حقيقته، وتصبه في قوالب ثقافية وحضارية مغايرة له تماما.

ويلحق بهذا النوع من التأسي الانتقائي التلفيقي، ما تنتهجه بعض التوجهات المذهبية؛ فقهية كانت أم سياسية، من تعسف في توظيف الوحي لتأكيد ونصرة آرائها ومواقفها دون ضوابط موضوعية معتبرة شرعا ومصلحة.

ولعل أخطر ما يواجه حركة التجديد الحضاري المعاصر للأمة، هو هذا التناقض في العلاقة بالمرجعية الموجهة، واضطراب منهجية استيحائها في تحقيق المتابعة والتأسي والانضباط الشرعي بصفة عامة، وهو ما يؤكد ضرورة البحث عن شروط ضمان التأسي الموضوعي والمتابعة البصيرة للمنهج النبوي في الالتزام والدعوة والبناء والمواجهة.

مفهوم التأسي الذوقي

ونقصد به، هنا، الانسياق وراء الأحوال العاطفية والروحية والنفسية الذاتية غير المنضبطة، التي تنتهي ببعض الناس إلى ركوب موجات الهوى الخفي والظاهر، نحو الخرافة والبدعة والضلالة، واللجوء إلى بعض أطراف الأحاديث والسلوكيات والمواقف النبوية، لتسويغ هذه الخرافات والبدع والضلالات، التي تنتهي أحيانا لدى بعض هؤلاء إلى إسقاط بعض أحكام الشريعة وإبطال تكاليفها الشرعية، باسم العبور من الشريعة إلى الحقيقة، ومن الظاهر إلى الباطن، ومنه إلى الذوق والحال والحلول والاتحاد والسكر والفناء، المفضي إلى توهم أنه «ما في الجبة إلا الله» [14]؛

---

(14) ابن تيمية، مجموع الفتاوى 180/10

ويشيع هذا الشكل من التأسي والاقتداء أكثر ما يشيع في بعض الأوساط الصوفية الخرافية •، التي تتساق وراء تحكيم الحالات النفسية والذوقية الخاصة في عملية الاتباع والتأسي، من خلال ما تفسحه من مجال واسع للاتباعية المغمضة أو الصماء، وللعمل بالمنامات التي أكثرها أضغاث أحلام وتهيئات، وبالأحوال النفسية غير المنضبطة، التي كثيرا ما ينفخ فيها الشيطان، ويدفع أصحابها، عبر حيله الدقيقة [15] إلى متاهات الإفراط في الاسترسال وراء الرغبة في الزهادة والتنسك والقرب غير المنضبط [16]، الذي قد ينتهي إلى الانفلات من دائرة الضبط والانضباط السنني: الشرعي والعقلي والمصلحي، للذوق والسلوك والواجبات والحقوق الذاتية والاجتماعية، والولوج في متاهات التخريف والمناقضة لسنن الله في خلقه.

وكثيرا ما يستند هذا التأسي النفسي الذوقي «المذرذر» أو السائل، على حديث الولاية الشهير، ويتخذه حجة لتسويغ انفلاته من دائرة الضبط السنني الشرعي والعقلي والمصلحي: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته) [17]، مع أن الحديث لا يتضمن

• نحترز بهذا الوصف حتى لا يغمط حق كثير من الطرق الصوفية التربوية المستنيرة، التي تتحرك في تناغم مع ضوابط الشرع ومسلمات العقل، وسنن الله في خلقه، ولا تعطل أيا منها، بخلاف الصوفية الخرافية فإنها في خصام وتضاد مع منطق الشرع ومنطق العقل ومنطق سنن التسخير عامة.

(15) راجع في ذلك: تلبيس إبليس لابن الجوزي، ورسالة الشرك ومظاهره لمحمد مبارك الميلي الجزائري.

(16) ابن القيم، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان 1/ 114، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت 1999).

(17) البخاري برقم/ 6502.

ذلك بأي وجه من الوجوه، لأن القرب من الله يتحقق بأداء الفرائض، ثـم الاجتهـاد في نوافل الطاعـات، والانفكاك عن دقائـق المكروهات بالـورع [18]، والكل محكـوم بالقاعدة الكلية للعبادة، وهـي: أن لا نعبد إلا الله، وأن لا نعبده إلا بما شرَّع [19].

فكل ما خرج عن هذه القاعدة الكلية أو ناقضها، فهو مردود وقادح في العبادة، وناقض لها جزئيا أو كليا [20]، كما جاء في الحديث: (من أحـدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهـو رد) [21]. وأمرنا هنا مقصود بـه ثوابت الدين العقدية والأخلاقية والتشريعية، ومقاصده الكلية في الإنسـان والمجتمع والحضارة الإنسانية، وما تحيل إليه الشريعة على بقيـة منظومات سنن التسخير الأخرى، في إطـار التكاملية العضوية الوظيفية بين منظومات سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، التي تحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وتدفع بها للمضي قدما على طريق العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية.

فالشريعـة موضوعية؛ في مقاصدهـا وأحكامها وأدواتها المنهجية، كما عبر عن ذلك العلماء بقولهم: إن «المقصد الشرعي من حيث وضع الشريعـة، إخراج المكلف من داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا» [22]. وهذا يعني أن التأسي الذوقي يجب أن يكـون محكومـا بسنن الله في الآفاق، وسننه في الأنفس، وسننه في الهدايـة، وسننه في التأييد، ودائرا في فلكها، وغير مناقض لأي منها، أو منجرف وراء هوى النفس وحيل الشيطان المهلكة.

وهذا مـا أدركه جهابذة الصوفية مبكرا، فقال الإمام الجنيد شيخ الطريقـة كما يسمى: «طريقتنـا مضبوطة بالكتاب والسنة» ونبه على

---

(18) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم/ 439 (ط2، دار ابن حزم، بيروت 2002).
(19) ابن تيمية، مجموع الفتاوى 1/99.
(20) الشاطبي، الاعتصام 1/ 51 (دار المعرفة، بيروت 2000)
(21) البخاري برقم 2697.
(22) الشاطبي، الموافقات 2/ 128.

ضرورة الدوران في فلك المشروعية الشريعة والسننية عامة، ووزن كل شيء بموازينها المنضبطة، فقال: «إذا رأيتم الرجل تتخرق له العادات، وتتواتر له الكرامات، فانظروا حاله عند الأمر والنهي، فإن قام بهما فهو ولي كامل، وإلا فلا عبرة به عند الأولياء، ومن لم يؤمن على الأدب الشرعي كيف يؤمن على سر الولاية المرعي»[23].

مفهوم التأسي المقاصدي أو الموضوعي المنضبط

ونقصد به المتابعة الواعية البصيرة للمنهج النبوي في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، بما يحقق أصالة الجهد وفعاليته واطراده، كمقاييس مرجعية للتحقق «بالإسلامية» أو النجاح بصفة عامة.

أي إن التأسي الموضوعي يتحقق بالاستيحاء المقاصدي الواقعي المتوازن لروح المنهج النبوي؛ في مرونته وانضباطيته وحيويته، على ضوء ثوابت وكليات المرجعية الموجهة، وحاجات الواقع القائم ومشكلاته، وإمكانات الإنجاز المتاحة، والظروف المحيطة بعملية الإنجاز، والمآلات المحتملة لذلك على المدى الآني والمتوسط والبعيد.

بمعنى أن التأسي الموضوعي يتم عندما يأخذ كل بعد من أبعاد «الدورة الإنجازية» للفعل الدعوي التجديدي حقه وموقعه من العملية التغييرية، بحسب أهميته وسلطته، والعكس صحيح حيث يفقد التأسي موضوعيته، ومن ثم أصالته وفعاليته وإمكانية اطراده، بقدر ما يختل التوازن بين أبعاد «الدورة الإنجازية» للفعل الدعوي بصورة غير مسوغة واقعيا.

فالتأسي الموضوعي على هذا الأساس جهد شمولي متكامل ومتوازن بعيد عن الذاتية والانتقائية التلفيقية، والآلية الصورية

(23) جمال الدين محمد الحضرمي، المشرع الروي 164/1.

أو الشكلية السكونية، كما أنه بعيد كذلك عن التعامل الجزئي أو السطحي، أو التحكمي مع الوحي عامة، وتجلياته العملية في الحركة النبوية خاصة، بل هو تعامل منهجي منضبط، تحكمه اعتبارات موضوعية منضبطة، تعود إلى طبيعة وحجم وعي المتأسي بمنظومة سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، التي لها السلطان الأكبر على الحياة الإنسانية عامة، لا يشذ عنها آدمي مهما كانت علاقته بالله تعالى، بل من كمال إسلام الفرد أو المجتمع وحسن علاقته بالله موافقة جهده أو نشاطه على مقتضى سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد ابتداء [24].

وإخراج الجهد الإسلامي التجديدي المعاصر من التأسي الآلي والانتقائي والذوقي المميع، إلى التأسي المقاصدي الموضوعي الذي تتوازن فيه وتتكامل أبعاد «الدورة الإنجازية» للفعل الدعوي بصورة واقعية متناسبة، تعطي كل بُعد ما يستحقه من العناية والاهتمام، بحسب موقعه من هذه الدورة وأهميته فيها، وهو ما يضمن أصالة هذا الجهد وفعاليته واطراده ومصداقيته، وهو ما تحاول هذه الدراسة المتواضعة الإسهام في البحث عن شروطه وآلياته المنهجية، من خلال منهج تحليلي استقرائي يتخذ من الفعل الدعوي النبوي نموذجاً أو عينة للدراسة.

---

(24) سيد قطب، في ظلال القرآن 514/1.



الفصل الأول

معالم المنهج في الميراث النبوي

في البداية أود أن أحدد باختصار ما أقصده بالمنهج هنا. فهو بصفة عامة قدرة معرفية على أصالة الفهم، وقدرة منهجية على فعالية التمثُّل الذاتي، وعلى فعالية الإنجاز الاجتماعي، وعلى فعالية الوقاية المبكرة والمرافقة والاستدراكية لكل العمليات السابقة. فالتحكم في المنهج يعني التحكم النوعي في الأدوات والآليات المعرفية التي تتيح استيعابا صحيحا للغايات والأهداف، وكفاءة عالية في استثمار تلك الشروط والإمكانات في تحقيق ذلك التأثير المطلوب فيه، وخبرة متجددة في تحقيق الوقاية المبكرة لمكتسبات العمل.

وعلى هذا الأساس فإن المنهج، كما سنرى لاحقا، هو روح السنة والسيرة النبوية، ومركز الثقل الأكبر فيهما، قبل أن تكون هذه السنة أو السيرة مجرد ترسانة ضخمة من المعلومات والمعارف الفقهية، والتوجيهات الأخلاقية، والوقائع التاريخية التي نحفظها ونسترجعها، ونحرص على أخذ أنفسنا بما نستطيع منها لترقية حياتنا.

الدوائر الكلية للمنهج في الحركة النبوية

ومن خلال دراساتي المختلفة في السنة والسيرة النبوية خاصة، وتتبعي للوعي السنني المنهجي في القرآن عامة، تبينت لي كثير من معالم وأبعاد المنهج في السنة والسيرة النبوية، وهو ما لخصته في رسالتي الماجستير والدكتوراه، وأود أن أستفيد منه في هذه الدراسة، مع إضافات واسعة تقتضيها طبيعة الشخصية المستقلة لهذه الدراسة، وتستلزمها الأغراض الفكرية والتربوية والاجتماعية والسياسية التي تريد تحقيقها في الصحوة والصفوة والمجتمع والأمة.

فنحن عندما نتتبع الخطوات المنهجية، التي كان عليه الصلاة والسلام يعرض بها حقائق الإسلام على الناس، ويؤسس وعيهم

بـه، ويجسـد عبرهـا نموذجـه الاجتماعـي في الحيـاة، ويواجه بها مشـكلات الواقـع والدعـوة، ويحـرك بواسطتها الأحـداث لتفكيك الأسس والمرتكزات الفكرية والعقدية والاجتماعية.. للنموذج الثقافي والاجتماعي للمجتمع التقليدي الجاهلي المتخلف، ويعيد بناءه في اتجاه خـط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، يتأكد لدينا أن النجـاح الكبير الذي حققته الدعـوة في عهده عليه الصلاة والسلام، يعود إلى المنهج الذي اعتمده في حركة الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة.

وهـو مـا سنحاول عرض بعض أهـم قواعده الكلية هنـا، تاركين المجال لمن يريد تتبع تفاصيله التطبيقية الكثيرة، للعودة إلى دراساتنا السابقـة عن المنهج النبوي في حماية الدعـوة ومنجزاتها في مرحلتي بنـاء الدعـوة والدولة والمجتمع، فقد استوفينـا الموضوع هناك بحمد الله وتوفيقه.

وبصفة عامة، فـإن معالم المنهج في الحركة النبوية يمكن حصرها في دائرتـين كبيرتـين: دائـرة العلاقة بالمنظومـات السننيـة الكونية الكليـة الأربعـة، التي تحكم حركة الاستخلاف البشـري، أو يجب أن تحكمها. ودائرة العلاقة بثوابت وأصول الكليات السننية العامة، التي تحكم حركـة الإنجاز العملي لأهـداف التغيير والإصـلاح والتجديد وأولوياته.

دائرة العلاقة بالمنظومات السننية الكونية الكبرى

ونقصـد بهـا منظومات سـنن التسخير الأربعة التـي تحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وهي منظومة سنن الآفاق، ومنظومة سـنن الأنفس، ومنظومة سنن الهداية، ومنظومة سـنن التأييد، التي استودع الله فيها القوانين السننية العامة لاستثمار مسخرات الكون في تلبية حاجات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، ومواجهة تحدياتها.

ارتباط الفعالية بشمولية وتكاملية الوعي بهذه المنظومات

فالعلاقـة العقديـة والوظيفيـة بهـذه المنظومات السننيـة الأربع، هـي التي تحـدد طبيعة وفعالية الحركـة الاستخلافية معا، وهل هي حركة أو فعالية تسير في خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، الذي ارتضاه الله لمسار الخلافة البشرية في الأرض، أم أنها تسـير في خط الشركية والذاتيـة والاستكبارية والعدوانية والدنيوية، بكل ما يترتب على السير في الخطين المتناقضين من نتائج متعاكسة، تدفع أولاها باتجاه الفعالية الاجتماعية والحضارية التكاملية البناءة، بينمـا تدفع الثانية باتجاه الفعاليـة الاجتماعية والحضارية التنافرية الاهتلاكية الهدمية [25]؟

استيعاب الفعل النبوي لهذه المنظومات السننية

والحركـة النبويـة، بطبيعة انتمائهـا لحركة الرسـالات السماوية، فإنهـا تحركت في عمـق خط العبودية والخيريـة والعالمية والإنسانية والكونيـة؛ مكملة له، ومؤسسة للوعي به، ومجسدة لنماذجه الثقافية والاجتماعيـة والحضاريـة في واقـع الحياة، وهو مـا يجعلها تستثمر كل مـا يتـاح لها مـن وعي وخـبرة في أي مجال من مجـالات الوعي التسخيري السنني الأربعة المشار إليها آنفا، ولا تزهد في أية إمكانية مـن الإمكانات السننيـة التي يتمخض عنها الوعـي البشري في هذه المنظومات السننية الكونية الأربعة.

فالدائـرة الأساسية الأولى في الوعـي بالمنهج النبوي، هـي شمولية وتكامليـة استثمار هذا المنهج لمعطيـات كل منظومات سنن التسخير الموضوعـة تحت تصـرف الإنسان، وهو ما يتميز به المنهج النبوي عن غـيره مـن المناهج الأخرى التـي تتعامل مع هذه المنظومـات السننية

(25) راجع دراستنا عن: الفعالية الحضارية والثقافة السننية.

الأربـع بتجزيئية متنافرة في كثير من الأحيان؛ الأمر الذي يؤثر بشدة علـى أصالـة وفعالية واطراديـة الأداء الاجتماعــي والحضاري لهذه المناهـج، بينما يعطي المنهج في الحركة النبوية أقصى درجات الأصالة والفعالية والاطراد.

فـإذا كان كثـير من المناهـج الأخرى قد خاصم العلـم وصادر حق العلماء في اكتشاف سنن الله في الآفاق والأنفس [26]، أو حوَّل بعضها أجزاء من هذه المنظومـات إلى مقدسات ومعبودات، وعطل وظيفتها التسخيرية، وحول جزءا من وقته وجهده وإمكاناته لخدمتها وإرضائها [27]؛ واضطرت فيما بعد حركة التطور المعرفي والحضاري إلى الثورة على هذه المناهج التي كان الكثير منها متترسا وراء الدين، واتخذت موقفا سلبيـا مـن الوظيفـة الاجتماعيـة والحضارية للديـن [28]، وتورطت بدورهـا، كما تورط غيرهـا، في مأزق التجزيئيـة التنافرية للتكاملية العضويـة لمنظومات سنن التسخير، وحرمـت الحضارة المعاصرة من الخدمات العقديـة والفكرية والروحيـة والاجتماعية لمنظومتي سنن الهدايـة والتأييد، وأنشأت حضارة ماديـة متوحشة، خالية من العمق الروحي والعاطفي، وضمرت فيها القيم الأخلاقية كثيرا، وكاد الإنسان فيها يفقد إنسانيته [29].

إذا كان الكثير من المناهج الدينية والوضعية الأخرى، قد عجز عن تحقيق الوعي والاستثمار الشمولي التكاملي لمنظومات سنن التسخير الأربعـة، وتوغل بل وَتَاهَ في التجزيئية التنافرية لها، فإن المنهج النبوي قـد تجاوز هذه المعضلـة تماما، من خلال تأسيســه للوعي الشمولي

---

(26) انظر: قصة الكنيسة مع حركة النهضة الأوروبية الحديثة.

(27) انظر: قصة الحضارة لويل ديورنت. والدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بالطقوس الدينية عامة.

(28) انظر: قصة العلمانية الحديثة مع الكنيسة.

(29) انظر: الإنسان ذلك المجهول لألكسيس كاريل، واللامنتمي لكولن ولسن، وإنسانية الإنسان لرينيه دوبو، ونقد الحداثة لألن تورين، ونهاية التاريخ والإنسان الأخير لفوكوياما.

التكاملي بهـذه المنظومات جميعا وجعله استثمـار معطياتها السننية شرطا أساسيا لمضي حركة الاستخلاف البشري في الأرض على خط العبوديـة والخيريـة والعالمية والإنسانية والكونيـة، كما هو مقدر لها في التشريـع الإلهـي المؤسِّس للخلافة الإنسانيـة في الأرض منذ بدء الخليقة الآدمية الأولى.

استحالة تحقيق الاقتدائية الموضوعية بدون منهج

إن وعـي هـذه الحقيقـة في المنهج النبـوي هو وحده القـادر على منحنـا الفهم الموضوعـي الصحيح لسر القوة الذاتيـة فيه، ولإدراك سر الفعالية النموذجية في الإنجازات الفكرية والتربوية والاجتماعية والحضاريـة، التي حققتها الحركة النبويـة في زمن قياسي، وحققتها حركـة الإشعاع العالمي للنمـوذج الحضاري الإسلامي في زمن قياسي آخـر بعد ذلك. كما تفسـر لنا هذه الحقيقة، كذلك، الأسرار العميقة لاختـلال التوازن في مسـيرة الحضارة الإسلامية بعـد ذلك، وأسرار قصـور وضعـف حركـة النهضة الإسلاميـة الحديثـة، وعجزها عن تحقيـق الإقلاع الحضاري المطلوب، رغـم مضي أمد طويل على هذه النهضـة، وتحرك جل جهودها تحت شعار «الإسلامية» و«الاقتدائية» و«العودة إلى الكتاب والسنة»... التي تقتضي - بحكم منطق السنن - منح هـذه الجهود الأصالة والفعالية والاطرادية المطلوبة، وتحقيق الإقلاع الحضاري المرجو.

ولا شك أن هذه المفارقة تثير أمامنا إشكالا ضخما، وهو: أين الخلل في هـذه المفارقة؟ أهو في المنهج ذاتـه، أم في عملية فهمه واستثماره؟ أم في شدة الضعف والانهيار الذاتي للأمة؟ أم في ضخامة التحديات الخارجية المحيطة بها؟.. ومما لا ريب فيه عندي وعند عامة المسلمين، أن الخلل ليس في المنهج أبدا، بل هو في العلاقة الفهمية والاستثمارية لـه، بحكم منطق السنن ومنطق التاريـخ اللذين يقفان مع المنهج على طول الخط.

فالخلل يجب أن يُبحث عنه في الجهد الذي ينضوي تحت شعار «الإسلامية» و«الاقتدائية» و«العودة إلى الكتاب والسنة»... بعيدا عن منطق التسويغ والاعتذارية المُموّهة للحقيقة، والمزيّفة للوعي، والفارضة للقصور والضعف، والجانية على عظمة المنهج وعلى صلاحيته لكل زمان ومكان، وعلى حق الإسلام في المنافسة والريادة الحضارية، وعلى حق الأمة في النهضة، وواجبها في المرجعية والقوامة والشهادة، وحق البشرية في المعرفة الصحيحة بالإسلام، والاستفادة بما فيه من خيرية.

إن كل هذا يدفعنا إلى تأكيد الأهمية القصوى للوعي بثوابت الدائرة الأولى للمنهج النبوي، وهي دائرة العلاقة بالمنظومات السننية الكونية الكلية الأربع، وكيف يجب أن يتسم الفهم لها، والاستثمار لمعطياتها؛ بالشمولية والتكاملية والمعرفية أو المنهجية السننية، التي سيأتي الحديث عن بعض أهم قواعدها في الدائرة الثانية للمنهج. وكل جهد يتم في إطار الإسلامية والاقتدائية والكتاب والسنة.. لا يستوعب كل معطيات هذه الدائرة المرجعية من المنهج، أو يناقض بعض معطياتها، أو يعطلها باسم «الإسلامية» و«الاقتصادية» أو «العلمية» و«المصلحية».. فهو جهد على هامش المنهج ومناقض له، ومضر به، وغير أمين عليه، مهما كان إخلاصه وجديته وغيرته؛ لأن الإخلاص وحده لا ينفع هنا، بل لا بد له من أن يتسم بالصواب وإلا فقد مصداقيته بعد أن فقد فاعليته، كما نبه على ذلك علماء المنهج في مثل هذه المقولة الرائعة للفضيل بن عياض رحمه الله، عندما سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾. فقال: «أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة» [30]، أي على المنهج كما أسلفنا.

---

(30) ابن تيمية، مجموع الفتاوى 7/ 271، تحقيق: عبدالقادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت 2000).

وكل ما جاء على هامش المنهج أو ناقض ثوابته، فإنه مشمول في التحذيرات الكثيرة التي وردت في التنبيه على أخطار مخالفة المنهج، والتي نقتصر منها على قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (النور: 63). وقوله عليه الصلاة والسلام: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) [31]، وفي رواية عند مسلم: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) [32].

واتساقا مع ما ذكرناه سابقا، فإن المقصود «بأمرنا» هنا، وإن كان يشمل الدين كله، فإن فكرة المنهج ينبغي أن تكون حاضرة دائما، ولو تعلق الأمر بوقائع جزئية؛ لأن كل مخالفة لمقاصد الدين لا تحدث عادة إلا بخلل في وعي المنهج وإعماله إعمالا صحيحا في تفسير الموقف أو مواجهته.

نماذج تطبيقية

وسأذكر هنا ثلاثة نماذج تطبيقية، تبين لنا خطورة الغفلة عن الاستثمار الشمولي التكاملي لمعطيات المنظومات السننية الأربع، وكيف يبتعد ذلك بعملية التأسي والاقتداء عن روح المنهج، ويخرج الموقف أو التصرف عن نطاق المقاصد المرجوة منه.

النموذج التطبيقي الأول

ونأخذه من حادثة تدل على الغفلة عن معطيات منظومة سنن الآفاق، وما ترتب على ذلك من خطر كبير، وهو ما يمكن أن نقيس عليه آلاف المواقف والتصرفات التي تتم بمعزل عن الوعي الحقيقي بما يتعلق بها من سنن تنتمي إلى منظومة سنن الآفاق.

---

(31) البخاري برقم 2697.
(32) مسلم برقم 1718.

والمثـال هو ما رواه جابر بن عبدالله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجـلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجـدون لي رخصة في التيمم، فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخـبر بذلـك فقال: (قتلوه قتلهـم الله! ألا سألـوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر، أو يعصب، على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده) [33].

ومـا أكـثر ما يتصدى أناسـ لقضايا ومشكلات وظواهـر ذات أبعاد سننية تخص منظومات سنن الآفاق، فيخوضون فيها بغير علم، فيهلكون أفرادا وجماعات ومجتمعات وأمما. لذلك جاءت قاعدة المنهج الأساسية: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحـل: 43)، لتعلـم الناسـ كيف يرجعـون إلى أهل الاختصاصـ ويحكمونهم فيما يدخل في مجال اختصاصهم.

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخذه من حادثة تدل على قصور الوعي بمعطيات منظومات سنن الأنفسـ، وما ترتـب على ذلك من فشل في معالجـة الموقف، وشحنه بعوامل سلبية إضافية، كما نرى ذلك في هذا الحديث الذي جاء فيه، أن رجلـين استبا عند النبي صلى الله عليـه وسلم، فغضب أحدهما، فاشتـد غضبـه حتى انتفخ وجهه وتغير، فقـال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني لأعلم كلمة، لو قالها لذهب عنه الذي يجد). فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم وقال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: أترى بي بأسا، أمجنون أنا، اذهب [34].

---

(33) الألباني في صحيح أبي داود برقم 336.
(34) البخاري برقم 6048.

ويمكن قياس آلاف الحوادث والمواقف والتصرفات على مثل هذه الحادثة، وتصور حجم الأضرار النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية التي يمكن أن تترتب على الجهل بالمعطيات السننية التي تساعد على فهمها ومواجهتها وتوجيهها بكفاءة، باعتبار أن الغضب حالة ينفع معها العودة إلى ذكر الله والاستعاذة من الشيطان الذي يكون قريبا من نفسية الغاضب.

النموذج التطبيقي الثالث

ونأخذه مما جاء في القرآن عن الموقف من قضايا الأمن الاجتماعي للمجتمع، وكيف أن هناك أمورا كثيرة قد لا يتيسر لكل الناس الوعي بمعطياتها، وتصور أبعادها، وإدراك تداعياتها السلبية أو الإيجابية، وأن الخوض فيها؛ بالترويج لها، أو بناء مواقف عليها، قد يمس بالأمن الاجتماعي للأفراد والجماعات والمجتمع والدولة والأمة، وهو ما يستدعي الرجوع فيه إلى من يمتلك القدرة على الفهم والتعاطي الصحيح مع الموقف، وهي قاعدة أساسية من قواعد المنهج كما أسلفنا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ (النساء: 83). فالتقدير الصحيح للموقف عملية منهجية مركبة، تستلزم وعيا سننيا متكاملا، تتشعب معطياته في منظومات سننية متعددة، ولا تستقل معطيات منظومة واحدة بذلك، ناهيك أن يقوى على ذلك فرد، وربما جمهور واسع من

غير المتخصصين على الإحاطة بها؛ الأمر الذي يتطلب العودة إلى أهل الذكر في مجالات شتى [35].

ومهما استعرضنا من الأمثلة التطبيقية المختلفة، فإن النتيجة تبقى واحدة، وهي أن تحقيق الاقتدائية الموضوعية، ومن ثم الفعالية التسخيرية النموذجية، تظل مشروطة بالوعي الشمولي التكاملي بالمنظومات السننية الكلية الأربعة، التي تتحكم في «المنهج في الحركة النبوية» بشكل مطرد.

دائرة العلاقة بكليات السنن الإجرائية العامة

وسنتناول منها سبع كليات كبرى، نرى أنها تشكل أصول الوعي والفقه التسخيري في الحركة النبوية بصفة خاصة، وفي رشد الخبرة التسخيرية والاستخلافية البشرية بصفة عامة:

كلية المبدئية الحركية البصيرة

وهي المعلم الأول من معالم المنهج النبوي الذي كان له دور أساسي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وبناء الدولة وتوطيد أركانها. ونقصد بالمبدئية هنا: التزام النبي صلى الله عليه وسلم في سلوكه ومواقفه وعلاقاته بمقررات الدعوة وثوابتها، وانشداده المستمر إليها، وجعلها فيصلا بينه وبين الناس، في الأخذ والعطاء، والموافقة والمخالفة، والولاء والبراء، والإقدام والإحجام..

فثوابت الإسلام العقدية والفكرية والأخلاقية والتشريعية، ومصلحة الدعوة إليها، وتجسيد نموذجه الاجتماعي والحضاري في الحياة، هي الحاكم والموجه لكل تصرفاته وأعماله ومواقفه؛ في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، لا يحيد عنها قيد أنملة، مهما كلفه ذلك من متاعب وتضحيات جسام.

---

(35) رشيد رضا، تفسير المنار، 5/ 252.

فالنبي صلى الله عليه وسلم في عمله الدعوي، اعتصم بمبادئ الدعوة وثوابتها، وانشدّ إليها انشدادا محكما في كل خطواته، سواء ما اتصل منها بعرض حقائق الإسلام على الناس، أو ما تعلق بمواجهته لمشكلات الواقع والدعوة، أو تحريك الأحداث من حوله نحو الغايات والأهداف والأولويات المرسومة للدعوة.

ففي كل ذلك كان عليه الصلاة والسلام يلتزم، بصرامة، بمقررات الشرع وأحكامه وأخلاقياته، ويتحرى مصلحة الدعوة إليه، ويدور معها حيث دارت، ولا يبالي، كما قال عليه الصلاة والسلام في دعائه الخاشع عند عودته من الطائف حزينا مهموما: (إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي) [36].

ومن يتتبع مسيرة الدعوة، سواء في مرحلة البناء العقدي والفكري والتربوي للقاعدة البشرية النوعية للدعوة في مكة، أو في مرحلة البناء الاجتماعي والسياسي للمجتمع والدولة في المدينة، ووضع الأساس الصلب للحضارة الإسلامية العالمية والإنسانية الكونية الكبرى، يقف على نماذج عديدة لمواقفه المبدئية الصارمة الحازمة، التي كان يقطع بها الطريق على المحاولات الاستدراجية للقوى المضادة، التي نبه عليها القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ ﴾ (القلم: 9) أي لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم، فيلينون لك في عبادتك إلهك [37]، وفي مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ ﴾ (الإسراء: 73- 75).

(36) ابن هشام، السيرة النبوية 61/2.

(37) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن 21/29.

ولكن الالتزام المبدئي الصارم، والانشداد البصير إلى ثوابت الدعوة، في محتواها ومصالحها العليا وأولوياتها المترابطة، مكن النبي عليه الصلاة والسلام من أن يحمي الدعوة في مضمونها الرسالي، وأن يضمن استمراريتها، وأن يحافظ على منجزاتها البشرية والمادية والمعنوية، وخاصة ما تعلق منها بالقاعدة القيادية، التي كان يعمل على بنائها ويعلق عليها آمالا كبيرة، رغم ضراوة التحديات التي كانت تواجهه وتعاكس سيره، وتضغط عليه للتنازل ولو عن شيء يسير من مبادئ الدعوة وأولوياتها [38].

نماذج تطبيقية

ونظرا لأهمية هذه الكلية من كليات المنهج، أود أن أذكر منها بعض النماذج التطبيقية على سبيل المثال.

النموذج التطبيقي الأول

ونأخذه من محاولة القوى المضادة للدعوة استغلال الحصار المضروب عليها، والتحديات التي تواجهها، في الضغط على قيادتها وعلى حلفاء الدعوة لفك الارتباط بينهما، أو حمل قيادة الدعوة على التنازل تدريجيا عن بعض ثوابتها، لفتح ثغرة في بنية المنهج لديها، واستثمارها في توسع نطاق عملية الاختراق والاستيعاب المضادة لها.

فقد جاء في السيرة أن قريشا جاءت إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا، فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله

(38) الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 340.

صلـى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء فقال: (ترون هذه الشمس) قالوا: نعم، قال: (فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعـل) وفي روايـة: والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار). فقال أبو طالب: (والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا راشدين). [39]

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخــذه مــن موقفه مــن محاولـة بعض قــوى المجتمــع الالتفاف حــول القانون الساري في المجتمــع، وتكييف تطبيقه بما يحفظ بعض مصالحهـم، فرفض رسول الله ذلــك أشد الرفض، وأعلن عليه حملة نقديـة علنية غير عادية، وأتبعه بتصميم صــارم على حماية القانون وتطبيقه بكل جدية.

فقد جاء في السيرة أن امرأة سرقت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه. قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلـم، فقال: (أتكلمني في حد مــن حدود الله). قال أسامة: استغفر لي يــا رســول الله، فلمــا كان العشي قــام رسول الله خطيبــا، فأثنى علــى الله بما هو أهله، ثم قال: (أما بعــد، فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهــم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركـوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقــت لقطعت يدها). ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت، قالت عائشة: فكانــت تأتــي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [40].

---

(39) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، دار النفائس، 1998 بيروت 78 ط 3، 78.
(40) البخاري برقم 4304.

ونأخذه من موقفه عليه الصلاة والسلام من مبدأ الوفاء بالعهد ولو للعدو. فقد جاء في السيرة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: (ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل. قال: فأخذنا كفار قريش. قالوا: إنكم تريدون محمدا؟ فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر. فقال (انصرفا. نفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم) [41].

وشبيه بهذا الموقف، ما جاء في السيرة عن تكليفه عليه الصلاة والسلام عليا رضي الله عنه برد أمانات الكفار التي كانت مودعة عند رسول الله! بعد أن قرر الهجرة الاضطرارية حفاظا على حياته، وتأمينا لدعوته من هؤلاء الكفار الذين كانوا لا يجدون في بيئتهم من تطمئن إليه نفوسهم، ليستودعوا عنده أماناتهم غير رسول الله عليه الصلاة والسلام [42]!.

ففي كلا الموقفين التزم رسول الله عليه الصلاة والسلام بالمبدئية الحركية العالية، بالرغم مما كان يحف بالموقفين من اعتبارات وضغوطات نفسية واجتماعية هائلة، كان بإمكانها أن تؤثّر عليهما، وتفسح المجال لمنطق السياسي لكي يسوغ الاستحواذ على هذه الأمانات، والاستعانة بها لمواجهة التحديات المصيرية التي كانت تواجه الدعوة وقيادتها! كما كان بإمكانه أن يأمر حذيفة بعدم الوفاء بعهده للمشركين، خاصة وأن الظرف الذي جاءه فيه حذيفة كان ظرفا عصيبا، يحتاج إلى كل طاقة بشرية ومادية مضافة، لمواجهة التحدي الأول للدعوة والدولة الإسلامية الوليدة!.

---

(41) مسلم برقم 1787.

(42) سيرة ابن هشام، 2/ 74.

ولكـن المبدئية الشرعيـة والأخلاقية الصارمـة، التي كانت تحكم منهـج النبي عليه الصـلاة والسلام في إدارة الابتـلاءات والتدافعات الاجتماعيـة مـن جهـة، وإدارة العملية التربويـة في المجتمع من جهة أخـرى، جعلته يتجاوز هذه الاعتبارات والأولويات المصلحية الظاهرة أو الآنيـة، وينحاز بلا تردد للمنطـق المبدئي، ليطابق موقفه مع المبدأ ابتداء، وليعطي للمجتمع إشارات تربوية واضحة، بخصوص الأخلاقية العالية التي يجب أن تحكم علاقاته بالآخرين، وليرسل إشارات دعوية أخرى قوية كذلك، للقوى المضادة أو المحايدة، بخصوص المنطق الذي يحكم هـذه الدعوة، والآفاق الاجتماعية والسياسية والحضارية التي تتحرك باتجاهها.

ولعلـه مـن المفيد جـدا في هذا المقـام، معرفة سر هـذا الانشداد القـوي لثوابـت الدعوة، والاعتصـام الصارم بمقرراتهـا، الذي شكل بحـق الصخرة التـي تحطمت عليها آمـال ومشاريع القـوى المضادة التـي تفننت واستماتت في تحقيق الاستيعاب المضاد للدعوة وقيادتها وقاعدتها الاجتماعية.

ومـع تسليمنـا المسبق بتأييد الله له، كما سـنرى ذلك لاحقا، فإننا نقـول باختصـار إن مـن الأسبـاب الرئيسة في ذلـك - والله أعلم - استيعابـه عليـه الصلاة والسلام العميق لمشـروع الدعوة، في أهدافه ومنطلقاتـه ومضمونـه وأولوياتـه، واقتناعـه المكين به، وأنـه البديل الحتمـي لحل مشكلات المجتمع الجاهلي وإنقاذ الإنسانية من مظالمه ومآسيـه، والسـير بها في طريـق تحقيق أمثل مسـتوى استخلافي في عـالم الشهـادة، ونيل أرفـع المقامات في عالم الخلـود، لأنه من صنع حكيم خبير.

هذا الوضوح للمشروع في ذهنه عليه الصلاة والسلام، وهذه الثقة المطلقـة في مصداقيتـه وأحقيتـه وقدراته، كما أكد ذلـك القرآن في

صيغة الأمر (43) في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ۝﴾ (الزخرف: 42-43) هُمَا اللذان كَانَا وراء هذا الانشداد لمقرراته، والاعتصام بثوابته، والاعتزاز به؛ أي وراء هذه المبدئية العالية التي شكلت الثابت الأساسي الأول في منهجه التغييري عليه الصلاة والسلام، والعامل الحاسم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

والخبرة التاريخية المستفيضة تبين لنا كم هو خطير وحاسم أمر التهاون في كلية أو أصل المبدئية البصيرة في اختراق الدعوات وتحريف محتواها، وتغيير خط سيرها، وربما إعادة استيعابها، أو تمييعها وتحجيم دورها الاجتماعي. فالدعوة أو الحركة التي تفرط في كلية المبدئية البصيرة، يحدث اختلال هيكلي في بنية المنهج لديها، ويمتد ذلك سريعا ليشمل بقية كليات المنهج وأصوله، وهو ما يؤثر بعمق على أصالتها وفعاليتها وإمكانية اطراديتها التاريخية.

والخلاصة هي: أن المبدئية الحركية البصيرة هي مرتكز المنهج الأساس، وشرط الأصالة والفعالية الأول في الحركة النبوية. ولكي يتسم أي إنجاز دعوي تال بالمبدئية الحركية البصيرة، يحتاج الأمر إلى استيعاب شمولي تكاملي عميق واع لمرجعية الدعوة وثوابتها العقدية والفكرية والتشريعية والأخلاقية، وأي نقص أو قصور في ذلك الاستيعاب سيؤثر، لا محالة، على عمق أصالة وفعالية واطرادية أدائها الفكري والتربوي والاجتماعي والسياسي والحضاري.

---

(43) الألوسي، روح المعاني، 25/ 117 (دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان 2002).

وهـي المعلـم الثاني مـن معـالم المنهج النبـوي في حمايـة الدعوة والمحافظـة على منجزاتها، وبناء الدولـة والمجتمع وتوطيد أركانهما. ونعنـي بها هنا: القدرة المتجددة على فهـم معطيات الواقع الإنساني في أبعـاده الفطريـة أو السننية الثابتة، وفي أبعـاده الفكرية والنفسية والاجتماعيـة المتحركـة، وإجـراء الموازنـات المصلحيـة الدقيقة بين الحاجـات والتحديات والأولويـات والخيارات والإمكانـات والمآلات، لتقويـة وحمايـة ما هو سليـم وصحي في هذا الواقـع، وتغيير ما هو سيء أو متخلف فيه، بشكل تدريجي تكاملي تراكمي عميق، يرتقي به إلى آفاق العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، التي يضعها الإسلام مقاصد كلية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض [44].

فالدعـوة الإسلاميـة دعـوة واقعيـة في ذاتها، أي في مـا جاءت به مـن تشريعـات عقدية وأخلاقيـة واجتماعية لصياغـة واقع الإنسان والمجتمـع. وواقعية في منهجيـة تبليغها وتطبيقها علـى واقع الأفراد والجماعات والمجتمعات [45]، وهو البعد الذي يعنينا في هذه الدراسة بالدرجة الأولى.

ومـن خلال تتبعنا لمختلف مراحـل الدعوة النبوية في مكة والمدينة، ومنهجيته عليه الصلاة والسلام في مواجهة مشكلات الواقع والدعوة، يتأكـد لنا أن الواقعية، بمفهومهـا السابق، كانت من معالم منهجه في عرض الإسلام على الناس، وفي تأسيس وعيهم به، وفي مواجهته لأعباء البناء الاجتماعي وتحدياته، حيث كان صلى الله عليه وسلم واقعيا في كل خطواتـه، لا يهمل الواقع الإنسـاني، ولا يتعالى عليه، ولا يسقطه من حساباته، اتكالا على كونه نبيا مؤيدا بالوحي، ومسددا به، بل كان

(44) الطيب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، دار قرطبة، الجزائر، 2004 ص 54.
(45) عبدالمجيد النجار، الإسلام والواقع الإنساني، بحث نشر ضمن كتاب، الدين والمجتمع، ص 95.

شديد العناية بمعرفة هذا الواقع، والإحاطة بأوضاعه وملابساته، التي كثيرا ما كيّف على ضوئها خطواته ومواقفه الإجرائية، للإفادة منها في تحريك الأحداث بإيجابية وفعالية نحو تحقيق مقاصد الدعوة وأهدافها وأولوياتها.

وقد بلغ بروز هذا الجانب في منهج عمله درجة كبيرة من الدقة والوضوح والصرامة [46]، تجعل الإنسان يحس وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقيم وزنا إلا لمنطق الأخذ بالأسباب في تلبية حاجات الواقع والدعوة، ومواجهة تحدياتهما، من جراء ما كان يحرص على توفيره من الضمانات اللازمة والممكنة لنجاح عمله [47].

فالمرونة الحركية المنضبطة في التعامل مع واقع الدعوة والمجتمع والإنسان، خاصية أساسية مطردة في المنهجية النبوية؛ حيث كان عليه الصلاة والسلام يبدأ في تغيير واقع الناس أفرادا وجماعات، من النقطة التي هم فيها فعلا، ولا يغفل عن الملابسات والمؤثرات الفكرية والنفسية والاجتماعية التي تحيط بواقعهم التاريخي والمعيش، وتفعل فيه وتكيف أولوياته واهتماماته، بل يتحرك بالناس في حدود الطاقة البشرية الممكنة لهم، والمتاحة لكل واحد منهم، وفي حدود الواقع المعيش في شتى البيئات والمستويات [48]، ليرتقي بهم شيئا فشيئا، نحو مستويات رفيعة من التوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي، الذي يدفع بحياتهم في اتجاه الآفاق البعيدة للعبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، التي تجري نحو حركة الاستخلاف البشري.

ولقد كان لهذا البعد في المنهج النبوي أهمية كبيرة، إلى جانب البعد السابق، في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في كل

---

(46) رمضان البوطي، فقه السيرة، ص 185.
(47) محمد الغزالي، فقه السيرة، ص 192.
(48) سيد قطب، هذا الدين، ص 8.

مراحل التأسيس العقدي والفكري والاجتماعي والسياسي للمجتمع الإسلامي الوليد، بما تمكن عليه الصلاة والسلام - من خلالهما - من توفيره من شروط وضمانات أساسية، كفل بعضها جانب الصرامة والصمود في وجه الضغوط والإغراءات التي كانت تستهدف التأثير في مضمون الرسالة ذاته، وفي مقاصدها الروحية والاجتماعية، وكفل بعضها الآخر جانب المرونة في الاستفادة من معطيات الواقع وملابساته وإمكاناته، لتخفيف الضغوط عن الدعوة، وتعزيز مواقعها، وتأمين منجزاتها شيئا فشيئا.

نماذج تطبيقية

وفيما يلي بعض النماذج عن هذه المرونة الحركية المنضبطة، التي كان الرسول يأخذ بها الناس في المجتمع، ويوجههم بها نحو المواقف والتصرفات المتوازنة التي تحقق الانسجام في حياتهم الخاصة، والفعالية في علاقاتهم الاجتماعية، ويحذرهم من المضاعفات الوخيمة التي قد تنجم عن الغفلة عن الفروق الفردية والاجتماعية بين الناس وبين المجتمعات، وهو ما أوردنا أمثلة كثيرة جدا عنه في رسائل كثيرة لنا، نقتطف منها بعض الأمثلة هنا.

النموذج التطبيقي الأول

نأخذه مما ورد في الحديث الصحيح أن رجلا أقبل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذا يصلي، فترك ناضحه، وأقبل إلى معاذ، فقرأ بسورة البقرة، أو النساء، فانطلق الرجل، وبلغه أن معاذا نال منه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فشكا إليه معاذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ، أفتان أنت؟ أو فاتن ثلاث مرات: فلولا صليت بسبح اسم ربك، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة) [49]. فالإنسان لا ينبغي

(49) البخاري برقم 705.

لـه أن يفرض ذوقه، أو اختياراته الاجتهاديـة، أو أوضاعه الخاصة.. علـى غيره مـن الناس، بل عليـه أن يتحرى المنهج الوسـط في إدارته للشـأن العام، وأن يراعي أوضاع النـاس وأحوالهم وحاجاتهم، وأن لا يحمّلهـم ما لا يطيقون، وأن لا يجعل نفسه وحاله ميزان لاستطاعات الآخرين. وكما قيل بحق: «إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع».

وفي سياق تأصيل الوعي بهذه القاعدة الفكرية والمنهجية والتربوية الهامة يقول الإمام الشاطبي: «قد يسوغ للمجتهد أن يحمل نفسه من التكليف ما هو فوق الوسط، بناء على ما تقدم في أحكام الرخص، ولما كان مفتيا بقوله وفعله، كان له أن يخفي ما لعله يقتدى به فيه، فربما اقتـدى به فيه من لا طاقة له بذلـك العمل فينقطع، وإن اتفق ظهوره للناسـ نبـه عليه، كما كان رسول الله صلـى الله عليه وسلم يفعل؛ إذ كان قد فاق الناس عبادة وخلقا، وكان عليه السلام قدوة، فربما اتبع لظهـور عمله، فكان ينهي عنه في مواضـع... وربما ترك العمل خوفا أن يعمـل به الناس فيفرض عليهـم» [50]. أو تعتبره الأجيال مفروضا فتتشبـث بـه، كما هو الحال بالنسبة لكثير مـن البدع التي أخذت في نفوس الناس وعقولهم واهتماماتهم مكان السنن، عندما غفل المقتدى بهـم؛ مـن العلماء والمفكريـن وذوي الشـأن.. عن التنبيـه على ذلك، والتأكيد على قواعد المنهج الضابطة والموجهة لذلك!.

ويضيـف الشاطبـي وهو يتحـدث عن المفتي أو المربـي أو الداعية البالغ ذروة الدرجة قائلا: «هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طـرف الانحلال... «لأن» الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل، ولا تقـوم به مصلحة الخلق: أما في طـرف التشديد فإنه مهلكة، وأما في طـرف الانحلال فكذلك أيضـا؛ لأن المستفتي - أو المتربى أو المتأسي

(50) الموافقات 4/ 260 (تحقيق: عبدالله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت).

أو المقلد – إذا ذهب به مذهب العنت والحرج بغض إليه الدين، وأدى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة – وهو مشاهد – وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة».

ويسمي العلماء صاحب هذه المرتبة الرباني، لما حازه من قدرات فائقة على الموازنة بين المصالح والمفاسد، واختيار أنفعها للشخص أو الجماعة، كما يضيف الشاطبي موضحا: «ويسمى صاحب هذه المرتبة الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم والفقيه، والعاقل، لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفي كل أحد حقه حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده، ومن خاصته أمران: أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص، بخلاف صاحب الرتبة الثانية – أي من هو دونه – فإنه إنما يجيب من رأس الكلية، من غير اعتبار الخاص. والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب على السؤالات، وصاحب الثانية لا ينظر إلى ذلك ولا يبالي بالمآل»[51].

هذه هي الواقعية الحركية المنضبطة، التي تتجلى تطبيقاتها الدقيقة في كل مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام وتوجيهاته، وهو ما ينبغي هضمه جيدا لكل من يريد أن يحقق التأسي الموضوعي بالسنة النبوية في حياته الخاصة، وفي تصديه للإسهام في إدارة الشأن العام للمجتمع والأمة.

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخذه من موقفه صلى الله عليه وسلم من الحولاء بنت تويب التي أخبر بأنها لا تنام الليل، فقال عليه الصلاة والسلام مستغربا وناكرا وموجها: (لا تنام الليل؟! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله

(51) نفسه 232/4.

لا يسـأم الله حتـى تسأمـوا) [52]. وهي نظرة كذلـك بعيدة الغور في الخبرة بمكونات النفس البشرية، وكيف يجب أن لا نصل بها إلى الملل والسآمة، وأن لا نرهقها بأنواع المجاهدات التي تفقدها الحماسة إلى العبادة، أو تدخل أضرارا بجوانب أخرى من حياة الفرد أو الجماعة، فيكون ذلك سببا في أنواع من الإحباطات والتراجعات والاضطرابات المربكة لاستمرار الترقيـة الروحية والاجتماعية لحياة الإنسان، ومن ثم لتطور المجتمع!.

النموذج التطبيقي الثالث

ونأخـذه مـن تنبيهه عليه الصـلاة والسلام إلى المنهـج السليم في تحقيق الالتزام الشامل الفعال بالإسلام: (إن هذا الدين متين، فأوغل فيـه برفـق، ولا تبغضـ إلى نفسك عبـادة الله، فإن المنبـت لا أرضا قطـع ولا ظهرا أبقـى) [53]. فالتدرج في العبادة، وأخذ النفس بالرفق والملاينة، والدأب في ذلك والمداومة عليه، والانتقال بين أنواع العبادات المختلفـة، ومراكمة الخـبرة، وتأمين عملية البناء.. هـي أسس المنهج التربـوي الذي يحقق الترقي الروحي والسلوكي والاجتماعي المطلوب في حياة الإنسان.

النموذج التطبيقي الرابع

ونأخـذه مـن حوار النبـي عليه الصـلاة والسلام مـع عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، عندما بلغه أنه يسرد الصوم، ونصحه بقوله عليـه الصلاة والسلام: «إن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا». وقـد قـال ابن عمرو بعد كبره وعجزه عـن مواصلة ما ألزم به نفسه: (ليتنـي قبلـت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم) [54]. فالحياة

---

(52) مسلم برقم 785.

(53) الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنة، 470/2، (دار الكتب العلمية، بيروت 1412هـ)

(54) البخاري برقم 1975.

تحتاج إلى حركة شمولية متكاملة ومتوازنة، تغطي كل أبعاد الكيان الإنساني، وتمنح كل بعد أو جانب منه حقه من الطاقة التي تغذيه وتنميه وتجدده وتطور أداءه، وتدفع عنه كل ما يضعفه ويؤذيه؛ ذلك لأن الإنسان لا يتحرك بجانب أو بعد واحد، كما أنه لا يتحرك بطاقة واحدة، بل يتحرك ويتكامل تحركه، وتعظم فعاليته التسخيرية، بحركة مجموع جوانبه، ومجموع طاقاته.

ومن المهم والحيوي هنا، أن نلاحظ أنه من العوامل الأساسية التي مكنت النبي صلى الله عليه وسلم من التحقق عمليا بهذه الواقعية الحركية المنضبطة، التي كان لها شأن كبير في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها؛ إحاطته العميقة والشاملة بالخريطة النفسية والتاريخية والاجتماعية لبيئة الدعوة، وخبرته بالنفس الإنسانية وسنن الله في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، وقبل ذلك استيعابه العميق لدعوته في مقاصدها ومقوماتها ومنهجيتها، وهو ما أعانه كثيرا على التقدير الجيد للموقف في كل خطوة يخطوها لتقويض ركائز المجتمع الجاهلي المتخلف، وبناء المجتمع الإسلامي الإنساني.

كلية الفعالية الإنجازية المتوازنة

وهي المعلم الثالث من معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وبناء الدولة والمجتمع وتوطيد أركانهما. ونقصد بها هنا: القدرة المتجددة على التأثير المتوازن في الأفكار والأشخاص والأشياء والعلاقات.. من خلال الاستفادة القصوى من الظروف المحيطة، والاستثمار الأمثل للإمكانات المتاحة، لإثارة الاهتمام بالدعوة، وتأسيس الوعي بها، ومواجهة المشكلات التي تثيرها تحولاتها الذاتية، والتي يدفع بها الواقع الخارجي في وجهها بشكل مستمر [55].

(55) مالك بن نبي، تأملات، ص 125، الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية.

فالجهد النبوي تميز بخاصيته العملية الشديدة، وإيجابيته الكبيرة، وإنجازيته الخصبة، بكل ما يعنيه ذلك ويتضمنه من المعرفة الدقيقة بالهدف، وقوة الإرادة والجدية والتصميم في إدراكه، وروح المبادرة، والدأب ومتابعة العمل، والنظام والانضباط، والطموح والحماس، والرغبة في النجاح، وروح المصابرة والمجالدة، والثبات، والمرونة، والقدرة على الموازنات الدقيقة بين الأولويات والخيارات المتاحة...

وفي كتابنا عن «المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها» بجزئيه، نماذج تطبيقية مستفيضة عن هذه الروح العملية الفذة، والإيجابية الكبيرة، والإنجازية العالية في نشر الدعوة وإثارة اهتمام المجتمع بها، والقدرة على مواجهة مشكلاتها الداخلية والخارجية المختلفة، التي كانت ضغوطات وتحديات المجتمع الجاهلي تفرزها ضدها باستمرار، في سياق التدافع الشديد بينهما.

فقد ظهر لنا جليا كيف تمكن عليه الصلاة والسلام على المستوى الداخلي من استيعاب أتباعه تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية وتوجيها، والاستفادة القصوى من كل إمكاناتهم الفكرية والمادية، وظروفهم الاجتماعية، في خدمة أهداف الدعوة وإنجاز أولوياتها بالتدريج، وتهيئة الشروط اللازمة لحماية مكتسباتها من الهدر والتبديد [56].

كما تبين لنا كذلك كيف استطاع عليه الصلاة والسلام على المستوى الخارجي أن يوظف إمكانات وظروف البيئة الجاهلية نفسها في خدمة أهداف الدعوة، وحماية منجزاتها بكفاءة عالية، أعجزت القوى المضادة بكل إمكاناتها عن تطويق الدعوة واستيعابها وشل حركتها، الأمر الذي جعلها - أي القوى المضادة - تعيش في ارتباك متواصل، قادها إلى مواقف مضطربة، كانت عونا كبيرا للدعوة في استحكام أمرها، وتوسيع نطاق إثارة اهتمام المجتمع بها، وانفتاح الآفاق أمامها بشكل مطرد.

---

(56) سعيد حوى، الرسول صلى الله عليه وسلم، 203/1، 213.

نماذج تطبيقية

ونذكر هنا بعض النماذج التطبيقية عن هذه الفعالية الإنجازية المتوازنة على سبيل المثال، وقد اخترناها لما فيها من موازنات دقيقة بين الأولويات والخيارات المتناقضة أحيانا.

النموذج التطبيقي الأول

ونأخذه من موقفه من ظاهرة الأصنام التي كان يعج بها البيت الحرام، والتي جاءت الدعوة أصلا لتطهير عقول الناس ونفوسهم وواقعهم من سلطانها الموهوم، ومع ذلك فإنه عليه الصلاة والسلام لم يشغل نفسه ولا شغل أصحابه بأمر تحطيمها، لإدراكه العميق أن المساس بها يؤجج مشاعر الالتفاف حولها، ويثير أمواجا من السخط على الدعوة والمطاردة لأتباعها، وأن خير وسيلة لتحطيمها هي تحطيم المنظومة العقدية والفكرية والمنهجية التي ترتكز عليها ابتداء، فإذا تم ذلك تهاوت وحدها، وهو ما حدث فعلا.

فتحديد الأهداف وحصر الأولويات الموضوعية الصحيحة، وضبط منهجية تحقيقها، والبعد عن المثيرات والمعوقات التي تؤثر سلبا على إنجازية العمل، عامل حاسم من عوامل الفعالية الإنجازية المتوازنة، لأنه يمكّن حركة الإنجاز من المضي قدما نحو أهدافها من غير تشتيت لجهدها، أو انشغال بما يصعب إنجازه آنيا، ويحتاج إلى تحقيق أولويات سابقة عليه تعين على إنجازه بكفاءة عالية وتكلفة قليلة بعد ذلك.

وهذا الأمر دون شك من دقائق الفعالية الإنجازية المتوازنة، وهو يحتاج إلى أنواع كثيرة ومتكاملة من الوعي، تساعد على موازنة الموقف، وضبط أولويات ومنهجية إنجازه. وما أكثر ما يشغل أفراد وحركات أنفسهم بأولويات يصعب تحقيقها آنيا، ويصرون عليها،

وتهدر فيها الكثير من الأوقات والجهود والإمكانات دون طائل، ومنطق الفعالية يقتضي تأجيل هذه الأولويات إلى أن تتضح ظروفها وتتهيأ بعض شروطها، وهو ما نجده متجليا في جل مواقف النبي عليه الصلاة والسلام.

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخذه من قدرته صلى الله عليه وسلم الفذة على استثمار الظروف المحيطة بالدعوة لتوفير الحماية لها ولقيادتها ولنخبتها الرسالية، وهو أمر في غاية الأهمية والحساسية بالنسبة لكل دعوة في طور النشوء والميلاد، تهددها تحديات وأخطار كثيرة قد تعيقها وربما تقضي عليها إذا لم تتمكن قيادتها من امتلاك الرؤية المآلية الثاقبة للأمور، ولم تتمكن من امتلاك المنهج المتوازن في مواجهة هذه التحديات واستيعاب هذه الأخطار.

وفي هذا السياق نذكر قضية في غاية الأهمية، وهي عمل الرسول عليه الصلاة والسلام على الاستفادة مما تتيحه قوانين وأعراف المجتمع من ضمانات لحماية نفسه ودعوته وقاعدة دعوته، دون أن تتضخم في ذهنه عقدة أو مشكلة الاستنكاف أو الخوف من الدخول تحت سلطان أو رحمة وحماية قوى اجتماعية وسياسية تناصب العداء لدعوته، بل تجاوز ذلك الهاجس، ونفذ إلى تفاصيل القضية، وفرز وميز بدقة بين مضاره ومنافعه، وبين المضار الكبرى والمضار الصغرى في تلك العلاقات والاستعانات.

ونذكر هنا على سبيل المثال عدم استنكافه أو امتناعه عن حماية عمه أبي طالب له، بل حرص على ذلك واستفاد منه إلى أبعد الحدود [57]. كما لم يمتنع عن البحث عن مأمن لنخبة الدعوة لدى ملك الحبشة

---

(57) البيهقي، دلائل النبوة، 186/2 (تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت 1985).

النصراني [58]، وأمر مجموعات معتبرة من هذه النخبة بالهجرة إلى الحبشــة، والعيش هنــاك أمدا طويلا [59]. وطلــب حماية المطعم بن عدي عندما خشي من منع قريش له للعودة إلى مكة بعد رفض زعماء الطائــف الاستجابة له [60]. وكان يخرج إلى المواسم ويتصل بالقبائل المختلفــة وينــادي فيها: (من يأويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي ولــه الجنــة؟) [61]، ويركز على قيادتها الاجتماعيــة المؤثرة، وهو يعلم تمامــا موقفها المعــادي للإسلام أو المتحفظ منه. وفي الهجرة استعان بخبــير بمسالك الطريق مع أنه مشرك، واستفاد من خبرته في تأمين هجرته إلى المدينة [62]، والأمثلة في هذا تطول.

فالإنجازية الدعوية والاجتماعية الفعالة، تقتضي الموازنة الدقيقة بــين المصالح والأولويــات، ومنطق المبادرة المحسوبــة، وإعمال قاعدة «مــا لا يــدرك كله لا يترك جله»، والوعي العميق بأن المصالح مشوبة، وأن المصلحــة الخالصة أمر عزيز ونادر الوجود، وأن الفعالية تقتضي التسديد والمقاربة قدر الاستطاعة، وعدم الالتفات إلى بعض ما يشوب المصلحــة أو الموقف من مفاســد يتعذر تلافيها. وفي هذا يقول الإمام الشاطبي: «الأمور الضرورية أو غيرها من الحاجية أو التكميلية، إذا اكتنفتهــا مــن الخارج أمــور لا ترضى شرعا، فــإن الإقدام على جلب المصالــح صحيــح على شرط التحفــظ بحســب الاستطاعة من غير حرج» [63].

وهــا هنــا ملاحظة في غاية الأهمية، وهي أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم، كان ينطلق من رؤية حركية إيجابية للمجتمع في جمهوره

---

(58) طبقات ابن سعد، 204/1 (دار صادر، بيروت 1957).

(59) سيرة ابن هشام، 406/1.

(60) ابن كثير، البداية والنهاية، 157/3 (دار الريان للتراث 1408هـ).

(62) البخاري برقم 3905.

(63) الموافقات، 152/4.

العريض، الذي لا يعتبره معاديا للدعوة بل هو منفتح عليها ولديه قابلية كبيرة للتجاوب الإيجابي معها، وإنما الإشكال منحصر في بعض الزعامات الفكرية والاجتماعية والسياسية للمجتمع، لذلك كان كثير الانفتاح على قاعدة المجتمع العريضة، حتى لا يتركها فريسة لهذه الزعامات المعادية للدعوة، بل إن انفتاحه امتد حتى إلى هذه القيادات المخاصمة للدعوة حتى يُطمئنها بأن الإسلام لا يسلب منها شيئا من امتيازاتها وحقوقها المشروعة، بل يفتح أمامها آفاقا أخرى للخيرية والوجاهة الرسالية لا تدانيها خيرية أو وجاهة أخرى، كما نلمس ذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: (الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) [64]. وهو ما ينبغي أن يعطي درسا كبيرا لكل حركات التغيير والإصلاح والتجديد في الأمة عبر الزمن.

النموذج التطبيقي الثالث

ونأخذه من الانفتاح على الروح الاجتهادية لدى قاعدة الدعوة والمجتمع، والاستفادة القصوى من خبراتهما، وتدريبهما على روح المبادرة، وتشجيعهما على ذلك، تعزيزا لفعالية أداء حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة.

والأمثلة التطبيقية على ذلك لا تحصى، نكتفي منها بالإشارة على سبيل المثال إلى تصويبه عليه الصلاة والسلام لاجتهاد الصحابة الذين لبوا نداءه: (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة) [65] فصلى بعضهم في الطريق إعمالا لظاهر النص، وأخَّر بعضهم الصلاة حتى وصل إلى بني قريظة، مراعاة لمقصد النداء، فثمَّن اجتهاد الجميع. وعندما استنكر بعض الناس انسحاب خالد بن الوليد بجيش مؤتة، إنقاذا له من الفناء، واستعظم ذلك

(64) البخاري برقم 3495.
(65) مسلم برقم 1770.

حتى بعض أفراد الجيش المنسحب أنفسهم، وسموا أنفسهم بالفارين! فقال لهم رسول الله: (بل أنتم الكارون، وأنا فئتكم) (66). وعندما أشار عليه الحباب بن المنذر بتغيير مكان تمركز جيش بدر، رحب بالفكرة وطبقها فورا لصوابيتها وفعاليتها (67). وعندما تبين له أن ما أشار به على مؤبّري النخل بالمدينة، لم يكن نافعا، عدل عن رأيه وقال لهم: (أنتم أعلم بأمر دنياكم) (68). وعندما استفسره جماعة من الصحابة رقوا مريضا فشفي، فأعطاهم ثلاثين شاة، فلما سألوا الرسول عن حكم ما فعلوه قال لهم: (وما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا واضربوا لي بسهم) (69).

والأمثلة تطول لو استرسلنا وراءها، ولكن تهمنا منها الدلالات المنهجية الكلية، التي تؤكد لنا بعدا أساسيا في المنهج النبوي وهو الانفتاح على منطق الفعالية في مبادرات وخبرات واجتهادات نخبة الدعوة وقاعدة المجتمع بصفة عامة، والاستفادة منها في رفع أداء حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة.

وقد أعانه صلى الله عليه وسلم على هذه الاستفادة القصوى من الظروف والإمكانات المتاحة في بيئة الدعوة عموما وضوح أهداف دعوته، واقتناعه الراسخ بأنه يحمل خيرا كثيرا للإنسانية، لابد أن يقدمه لها، ومرونته الكبيرة في التعامل مع الواقع الإنساني، وإحساسه العميق بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في تغييره، ومعرفته المكينة بالمجتمع وقواه المختلفة، وعدم استنكافه عن الاستفادة من خبرات وتجارب غيره من أتباعه، بل ومن خبرات المشركين أنفسهم.

---

(66) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر، 153/8.

(67) أحمد باوزير، مرويات غزوة بدر، ص 157، (مكتبة طيبة، 1980).

(68) مسلم برقم 2363.

(69) البخاري برقم 5007.

كل هذه العوامل طبعت حياته عليه الصلاة والسلام بجدية كبيرة، ومنحته القدرة على الاستيعاب الجيد للموقف، والتقدير الدقيق لاحتياجاته الإجرائية على مستوى كفاءة الوسائل والأساليب [70]، الأمر الذي أعطى لجهده فعالية كبيرة، ساهمت بقسط وافر في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وفسحت لها المجال للامتداد على حساب الواقع الجاهلي المتداعي.

كلية الاستباقية الوقائية المتكاملة

وهي المعلم الرابع من معالم النهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وبناء الدولة والمجتمع وتوطيد أركانهما. ونقصد بالاستباقية الوقائية المتكاملة هنا: المتابعة الشمولية الدؤوبة لمسيرة حركة الدعوة والبناء والمواجهة، والتركيز المستمر على استشراف آفاق تطورها، واستباق المشكلات التي يمكن أن تعترض طريقها، والمبادرة السريعة إلى الوقاية المبكرة منها قبل استفحال أمرها.

فالمنهج النبوي كما رأينا، فضلا عن أنه يتميز بالمبدئية الحركية البصيرة، والواقعية الحركية المنضبطة، والفاعلية الإنجازية المتوازنة، فهو أيضا يتميز بالاستباقية الوقائية المتكاملة، التي ترصد بعمق تفاعلات الواقع المعيش وتداعياته وتحولاته، وتستقرئ آفاقه المستقبلية، وتبادر إلى مواجهة تحديات حركة الدعوة والبناء بشكل مستمر، لا يتيح أي فرصة لنمو وتراكم هذه المشكلات الخاصة بالدعوة وقيادتها، أو بالدعوة وقاعدتها البشرية، أو بالدعوة وقاعدة المجتمع.

وبإحكامه عليه الصلاة والسلام للبعد الوقائي في «الدورة الإنجازية» لفعله الدعوي والبنائي، تكاملت في جهده شروط الفعالية النموذجية، التي مكنته من حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، والسير بها قدما نحو أهدافها في بناء الإنسان والمجتمع والدولة والأمة.

(70) جان بيريه، الذكاء والقيم المعنوية، ص 5.

نماذج تطبيقية

ونذكر هنا بعض النماذج التطبيقية عن هذه القاعدة الأساسية من قواعد المنهج:

النموذج التطبيقي الأول

ونأخذه من مبادرته الاستباقية المبكرة إلى تدارك بعض الظواهر الفكرية والسلوكية السلبية، واستيعابها في مهدها، وعدم إتاحة أية فرصة لها للنمو والاستفحال والاستعصاء على المعالجة. كما يتجلى ذلك مثلا في موقفه السريع من الثلاثة الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني) (71).

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخذه من نظرته الاستشرافية إلى الأمور، وعدم إتاحته الفرصة للضغوط والمغريات الآنية لتؤثر سلبا على موقفه وقراره الاجتماعي أو السياسي، الذي كان موزونا ومحكوما دوما بالمصالح الكلية العليا للدعوة والمجتمع والدولة.

---

(71) البخاري برقم 5063



وهـو مـا نلمسه على سبيـل المثال في هذا الموقـف الذي وقفه من شـروط قبيلة بني عامر لنصرة دعوته. فقد جاء في السيرة أنه صلى الله عليـه وسلم لمـا أتى بني عامـر بن صعصعـة، ودعاهم إلى الله، وعرضـ عليهم نصرته، فطمعوا في استغلاله، كما عبر عن ذلك أحد دهاتهـم، وهو بَيْحَرة بن فِراس، حينمـا نبه أصحابه إلى أهمية دعوة الرجل قائلا لهم: «والله لو أني أخذت هذا الفتى لأكلت به العرب. ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهـرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: (الأمر لله يضعـه حيـث يشاء) قال: فقال له: أفَنُهـدفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمير لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه [72].

فالنظـرة الاشترافية الوقائية البعيدة الغـور، جعلت الرسول عليه الصـلاة والسلام يرفض هذا العرض، في وقت كان فيه أشد ما يكون حاجـة إلى النصـرة، وهـو ما يجـب أن تتحلى به قيـادة كل حركة أو مجتمع أو دولة تريد أن تحافظ على المصالح العليا للدعوة والمجتمع، ولا ترهنهما لشروط واتفاقات مجحفة، تأتي على مصالحهما العليا، عاجلا أو آجلا.

النموذج التطبيقي الثالث

ونأخـذه من القدرة علـى استشراف بوادر الأزمـات، والمبادرة إلى تطويق واحتواء تداعياتها، وتجريد القوى التي تعمل على تطوير هذه الأزمات واستثمارها في الإساءة إلى الدعوة والمجتمع والدولة، من أية إمكانيـة أو فرصـة لتحقيق أهدافها. كما يتضـح لنا ذلك على سبيل المثـال من محاولـة المنافقين استغـلال مناوشة حدثت بـين أنصاري ومهاجـر، فقال الأنصاري: يا للأنصـار! وقال المهاجر: ياللمهاجرين! فسمـع ذلـك رسول الله صلـى الله عليه وسلم فقـال: (ما بال دعوى

---

(72) سيرة ابن هشام، 2/38.

جاهليـة). قالـوا: يا رسـول الله، كسع رجل مـن المهاجرين رجلا من الأنصـار، فقال: (دعوها فإنها منتنـة). فسمع بذلك عبدالله بن أبي فقـال: فعلوها، أما والله لئن رجعنـا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلـغ النبـي صلى الله عليه وسلم، فقـام عمر فقال: يا رسول الله، دعنـي أضـرب عنـق هذا المنافـق، فقال النبي صلـى الله عليه وسلم: (دعه، لا يتحدث الناس أنَّ محمدا يقتل أصحابه) [73].

النموذج التطبيقي الرابع

ونأخـذه مـن الأحاديـث النبويـة الكثـيرة التي تتحـدث عن الفتن وأشـراط الساعة، والتي كان مـن أغراضها الأساسية تحذير الأفراد والجماعات والمجتمع والأمة من أسباب الفتن الاجتماعية التي تُشرذم المجتمع، وتنهك قواه وطاقاته، وتوهن إرادته الحضارية، وتضعف أداءه في معتركات التدافع والتداول الحضاري.

وأكتفـي هنا بمثالـين من هـذه الأحاديث لكثرتهـا، أولهما حديث استشرافي عظيم الشأن، حذّر فيه الرسول عليه الصلاة والسلام من معضلة القيادة عامة والقيادة السياسية خاصة، ومن أخطار الخلاف المرضي، ومـن المحدثات الخارقة للقوانين، والمهـددة للأمن والسلام الاجتماعيـين للمجتمع. قال العرياض: صلى بنا رسول الله صلى الله عليـه وسلـم ذات يوم، ثـم أقبل علينا، فوعظنا موعظـة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظـة مودع، فما تعهد إلينا؟ فقـال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنـة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضـوا عليهـا بالنواجذ، وإياكـم ومحدثات الأمور فـإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) [74].

---

(73) البخاري برقم 4905.

(74) الألباني في صحيح أبي داود برقم 4607.

والحديث الثاني نبه فيه كذلك على مخاطر الاضطراب والانحراف في المرجعية الفكرية والسياسية للمجتمع والدولة بالخصوص، وأفاض في تشخيص بعض مواصفاتها، وأكد على أهمية الانسجام الاجتماعي والسياسي في مواجهة هذه الأخطار، ونَبَّهَ على أهمية الوعي بالفرق المنحرفة لتلافي الانجراف في محدثاتها المهلكة، والتأكيد على مسؤولية الفرد في الوقاية من الفتن الاجتماعية.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم). قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: (نعم، وفيه دخن). قلت: وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر). قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها). قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا). قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم). قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) [75].

وبمناسبة استشهادنا بحذيفة بن اليمان رضي الله عنه في سياق قاعدة الاستباقية الوقائية التكاملية في المنهج النبوي، نشير إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يخصه بالكثير من الأسرار التي تدخل في الوقاية الاستشرافية للدعوة والمجتمع والدولة [76]، وهو ما يعطينا إشارة بالغة الأهمية على طريق علوم ومؤسسات الوقاية الاستراتيجية التي يجب أن تكون في المجتمع.

---

(75) البخاري برقم 7084.

(76) البخاري برقم 525، 6278.

وهـي المعلـم الخامس من معـالم المنهج النبـوي في حماية الدعوة والمحافظـة على منجزاتها، وبناء الدولـة والمجتمع وتوطيد أركانهما. ونقصـد بها هنـا: الانشداد الدائـم إلى أهداف الدعـوة، والاندفاع المنهجي المتواصل نحو تحقيقها في واقع الحياة، عبر المتابعة المنهجية الجادة لإنجاز أولويات العمل أولا فأولا، بغير كلل ولا ملل، مهما طال أمد التحديات، واشتد وطؤها على الدعوة وشمل ساحاتها جميعا.

ولا يخفـى مدى الأهميـة الكبيرة التي تحتلها هذه الكلية في حركة التغيير والإصلاح والتجديد بصفة عامة، لما توفره من شروط أساسية للتغيير، وفي مقدمتها تحقيق التراكم التكاملي للجهد والخبرة، وتجاوز معضلـة الاستئنافية في العمل، وتحقيق المواكبة الضرورية لمستجدات حركـة الابتـلاء والتدافع والتداول والتجديد، التـي يتحرك في نطاق تأثيراتهـا السلبيـة والإيجابية جميع البشر، وهـو ما نبه عليه حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي جاء فيه: (سددوا وقاربوا، واعلموا أنـه لـن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قـل) [77]. لأن العمـل الدائم ولو كان قليـلا، يؤدي مع الزمن إلى التراكم الكمي والنوعي للإمكانات والخبرات، التي تعزز فعالية الأداء الاجتماعي والحضاري للفرد والمجتمع.

وفي حديـث آخـر نبه فيه عليـه الصلاة والسلام علـى يسر الدين وسماحته في ذاته، وانسجام قيمه وتعاليمه وشرائعه مع فطرة الإنسان تماما، وقدرته على التأثير الإيجابي الفعال في النفوس، ولكن الصعوبة قـد تأتيه من اضطراب منهجية التعاطي التربوي للناس معه، كما في هـذا الحديث الرائع الـذي تضمن قواعد كـبرى في المنهج: (إن هذا

---

(77) البخاري برقم 6464.

الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) [78]. وفي رواية أخرى عند البخاري: (والقصد القصد تبلغوا) [79]. والقصد التوسط والاعتدال والتوازن، مع الجد والتحري في طلب الهدف.

فالاستمرارية بما تعنيه من توثب روحي دائب، واطراد في إنجاز الأولويات الاجتماعية، وإبداع متواصل ومتجدد لإمكانات وشروط الإنجاز الفعالة، شرط أساس في تحقيق أصالة وفعالية واطرادية حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، التي تتم عبرها تلبية حاجات المجتمع ومواجهة التحديات المعروضة عليه، فإذا ما تأثرت عملية الاستمرارية البنائية المتجددة، وتعرضت حركة التغيير والإصلاح والتجديد للفتور أو التوقف أو الاستئنافية • أو التآكل والاهتلاك الذاتي المنهك، أثر ذلك بشكل عميق على مجمل الفعالية الاجتماعية والحضارية للمجتمع، واضطرته سنن التدافع والتداول الاجتماعي والحضاري إلى التقهقر والضعف والغثائية والتبعية الحضارية [80].

وقد لخصت هذه المعادلة الكبيرة في عملية التغيير الاجتماعي والحضاري، مقولة شعرية رائعة، نفذ صاحبها إلى سنة أساسية من سنن القوة والضعف في حركة التدافع والتداول الاجتماعي والحضاري حين قال:

وهل يبلغ البنيان يوما تمامه   إذا كنت أنت تبني وغيرك يهدم

والمتتبع لمسار الحركة النبوية في كل مراحلها، يلحظ أن ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على الدعوة، وصموده في وجه التحديات التي كانت تكتنف وجودها، واندفاعه المتواصل بها نحو غاياتها المرسومة؛

(78) النسائي برقم 5034.

(79) البخاري برقم 6098.

• نقصد بالاستئنافية هنا البداية الصفرية المزمنة في الجهد الاجتماعي وعدم تكامليته التاريخية.

(80) انظر للمؤلف: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية.

عبر الإنجـاز المنهجي المخطَّط لأولوياتها العقدية والفكرية والتربوية والاجتماعيـة والسياسية المختلفة.. شكل أحد أهم أسباب النجاح في حمايـة الدعـوة والمحافظة علـى منجزاتها، والتمكُّن مـن بناء الدولة والمجتمع وتوطيد سلطانهما.

ومـع أن القوى المضادة كان هدفها المحوري هو إعاقة هذه الدعوة عـن التواصـل والاستمراريـة، وبذلت مـن أجل ذلك جهـودا ضخمة مضنيـة، تحطمت كلها علـى صخرة الصمود النبـوي، وإصراره على الاستمـرار في السـير نحو أهدافه بكل جدية وفعالية وطموح وتدرج. حيـث كانت هذه القـوى تفاجأ كل مرة تظن فيهـا أن جهدها سيؤتي ثماره في إيقاف الدعوة، أو تحريفها عن مسارها، أو تجميد حركتها، بأنهـا كانـت واهمة، وأن ما أقدمـت عليه من مواقـف ومبادرات قد استطاعت الحركة النبوية أن تستوعبه وتستثمره لصالح الدعوة، على حسـاب مصالـح خصومها الذين وجـدوا أنفسهم يلهثـون وراء ردود الأفعال المرتبكة بشكل مستمر.

وتعـود هذه الاستمراريـة البنائية المتجددة في الجهـد النبوي إلى الالتـزام المبدئـي الصـارم في حركتـه عليـه الصلاة والسـلام، وإلى واقعيتهـا في مواجهـة أعباء البنـاء وتحديات الواقـع، وإلى الفعالية الإنجازية الكبيرة التـي اتسمت بها، وانطبعت بها حياته، وإلى حسن استعانته بالله تعالى وتوكله عليه كما سيأتي لاحقا.

نماذج تطبيقية

وهــذه بعض النماذج التطبيقية عن هــذه القاعدة المحورية الهامة من قواعد المنهج في الحركة النبوية:

النموذج التطبيقي الأول

ونأخـذه من وصف بعض الصحابة للجهـد النبوي من منظور كلية أو قاعـدة الاستمرارية، حيث لاحظ الكثير منهم أن عمله كان بصفة عامـة (ديمة) [81] أي دائما مستمرا، وأنه (إذا عمل شيئا أثبته) [82]، أي لزمـه وداوم عليـه وتعهده حتى يبلغ به نهايتـه وكماله من الإتقان وتحقيق أبعد مقاصده.

وسـرى منه ذلـك إلى آل بيته وسائر أصحابـه، كما جاء في رواية: (وكان آل محمد إذا عملوا عملا أثبتوه) [83]. وقالت عنه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها: (ما مات رسول الله حتى كان أكثر صلاته وهو جالس، وكان أحب العمل إليه ما داوم عليه العبد، وإن كان شيئا يسيرا) [84].

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخـذه من متابعته التربويـة المستمرة لأجيـال المجتمع، ورعايته لحركة ترقِّيهم الفكـري والروحي والسلوكي والاجتماعي، والدفع بها إلى أعلـى مستويـات الأصالة والفعالية والاطراد، كما يتضح لنا ذلك علـى سبيـل المثال مـن نصيحته لعبدالله بن عمرو بـن العاص رضي الله عنهمـا، عندما لاحـظ بأنه يبالغ في أداء بعضـ النوافل، وخشي عليه مـن المضاعفات السلبيـة للمبالغة والتشـدد، فناقشه في الأمر وقـال له: (ألم أخـبر أنك تقوم الليل وتصوم النهـار؟. قلت إني أفعل ذلـك. قـال: فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينـك، ونفهت نفسك، وإن لنفسك حقا، ولأهلك حقا، فصم وأفطر، وقم ونم) [85]. وأعطاه عليه

---

(81) البخاري برقم 1987.
(82) مسلم برقم 835.
(83) مسلم برقم 782.
(84) صحيح ابن حبان برقم 2507.
(85) البخاري برقم 1102.

الصلاة والسلام مثالا عن رجل سلك الطريق نفسه ولكنه لم يثبت عليها، لأنه حمَّل نفسه ما لا تطيق، وكان لا بد أن يفتر وربما يتقهقر في الطاعات، فقال له: (يا عبدالله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) (86). وقد سبق أن أشرنا إلى ندم عبدالله بن عمرو، وتمنّيه لو أنه أخذ بنصيحة رسول الله عليه الصلاة والسلام كاملة!.

النموذج التطبيقي الثالث

ونأخذه من توجيه تربوي لأحد الصحابة كان مع رسول الله عليه الصلاة والسلام في سفر، فقال له، كما يروي ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه، كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير، فقال: يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا. فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا (87).

فالتوجيه يبين لنا حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على تجنُّب كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا على حيوية اندفاع الناس وترقيهم في مدارج العبودية، عبر استمرار المجاهدة والتزكية الذاتية المتصلة للنفس أولا، ثم المساهمة الجادة في أداء الواجبات الاجتماعية المتصلة بحركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، في المجتمع والأمة والعالم ثانيا.

النموذج التطبيقي الرابع

ونأخذه من تشجيعه وحثه للمسلمين على الاستزادة من النجاحات والدوام عليها، كما نلمس ذلك في هذا الحوار مع أحد الصحابة

(86) البخاري برقم 1101.
(87) البخاري برقم 2856.

الـذي مر به في الطريق، فسأله عليه الصلاة والسلام: كيف أصبحت يـا حارث بن مالك؟ قال: أصبحت مؤمنا، قال: (إن لكل حق حقيقة)، قـال: أصبحتُ قد عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأضمأت نهـاري، ولكأنما أنظر إلى عرش ربي قد أبرز للحساب، ولكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة، ولكأني أسمع عواء أهل النار، قال: فقال له: (عبدٌ نَوَّرَ الله الإيمان في قلبه. أو عرفت فالزم) [88].

النموذج التطبيقي الخامس

ونأخـذه مـن هـذا الحـوار الرائع الـذي دار بينه صلـى الله عليه وسلـم وبين بعض الصحابة حول ظاهرة الفتور، وكيف ينبغي للمسلم أن يحافـظ علـى حالة الارتقـاء الروحي والسلوكي التـي يصل إليها عـبر المجاهدات التربويـة والعبادية المستمرة. فقـد جاء عن حنظلة الأسيـدي رضي الله عنه، أن أبا بكـر لقيه في الطريق فقال له: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحانه الله! ما تقول؟ قـال: قلت: نكون عند رسـول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنـة، حتى كأنـا رأي عين، فإذا خرجنا من عنـد رسول الله صلى الله عليـه وسلم، عافسنـا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا. قـال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هـذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنـا على رسـول الله صلى الله عليه وسلم. قلـت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأى عين، فـإذا خرجنا من عندك، عافسنـا الأزواج والأولاد والضيعات. نسينا كثيرا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لو تدومـون على ما تكونـون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم. ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة) [89] ثلاث مرات.

---

(88) الألباني في الإيمان لابن أبي شيبة برقم 115.
(89) مسلم برقم 2750.

والأمثلة كثيرة يصعب استقصاؤها وحصرها، اكتفينا منها بهذه النماذج التطبيقية المتنوعة، التي تلقي الضوء على محورية حضور كلية الاستمرارية البنائية المتجددة في المنهج النبوي، والتي ترتقي فيه إلى مستوى السنة أو القانون الكلي المطرد في الحياة.

كلية الإحسان في العلاقة بالآخر

وهي المعلم السادس من معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها. ونعني بها هنا: اتسام علاقته صلى الله عليه وسلم بغيره من الناس بالروحية الأخلاقية والجمالية العالية، والسماحة الإنسانية الفذة التي تهيمن عليها مشاعر الرأفة والشفقة والحب، والرحمة والصفح والتجاوز، والحلم والأناة والصبر والاحتساب.. من أجل النفاذ إلى نفوسهم وعقولهم، وإتاحة الفرصة لهم للانفتاح على روحية وإنسانية وأخلاقية وجمالية وعظمة الدعوة التي يحملها إليهم، وآفاق العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية التي يريد نقلهم إليها عبر ذلك.

فالرسول صلى الله عليه وسلم في عمله الدعوي، وأدائه الاجتماعي السياسي بصفة عامة، كان شديد الحرص على تمكين الناس من الانفتاح على أعماق الدعوة وأغوارها الروحية والأخلاقية والإنسانية، بل كان ذلك هاجسه الأكبر الذي كان يؤرقه فعلا، كما يشير إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ (الكهف: 6)، وقوله عز وجل: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ (فاطر: 8).

فقد كان عليه الصلاة والسلام يتألم من حركة الناس خارج مدار العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية التي جاء بها الإسلام،

ويتحسر من ذلك؛ لأنه سير في الاتجاه المناقض لسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من ناحية، وسننه سبحانه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من ناحية أخرى، نتيجته مصادمة فطرتهم وفطرة الوجود من حولهم، وهدر «ميزانيتهم التسخيرية»، وحرمان أنفسهم من الاستمتاع بدنياهم وآخرتهم معا. وهو ما جعله عليه الصلاة والسلام يعمل كل ما في وسعه من أجل تجنيب الإنسان هذا المصير، والانتقال به إلى وضعية التناغم والانسجام مع فطرته وفطرة الوجود من حوله، رغم ما كان يلقاه من الإعراض والأذى والعنت.

فمع ما كان يلحقه عليه الصلاة والسلام من المتاعب الجمة، ويقاسيه على أيدي جهلة الناس وكفرتهم، لم ينقم عليهم، ولم تتغير نفسه، بل ظل قلبه طافحا بمشاعر الشفقة عليهم، والرأفة بهم، ورجاء الخير لهم، وازداد انفتاحا عليهم، وعمل على إيصال دفء الدعوة إلى نفوسهم وعقولهم.

نماذج تطبيقية

وها هنا بعض النماذج التطبيقية لهذه القاعدة الكلية من قواعد المنهج الأساسية في حركته الدعوية عليه الصلاة والسلام:

النموذج التطبيقي الأول

ونأخذه من موقفه من البلاء المبين الذي لحق به عند خروجه إلى الطائف، والذي وصفه عليه الصلاة والسلام بأنه لم يلحقه بلاء أشد منه، كما جاء ذلك في جوابه عن سؤال أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها له: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ فقال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب،

فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا) [90].

إن استراتيجية الإحسان التي كانت تشكل ركيزة أساسية من ركائز المنهج في الحركة النبوية، هي التي أملت على الرسول عليه الصلاة والسلام مثل هذا الموقف الرسالي الفذ، الذي ليس باستطاعة أحد، جرى له ما جرى للرسول، أن يقفه من خصومه، خاصة وقد قدر عليهم، وأتته الفرصة لينتصف منهم! خاصة عندما نستحضر حالة الغضب العارم الذي كانت عليه نفسية الرسول في تلك اللحظات، والذي كان من الطبيعي جدا أن يدفع به إلى تأديبهم واستئصال شأفتهم، ولكنه فعل العكس تماما، فاحتسب آلامه عند الله، ورجا لهم مستقبلا واعدا في ظلال الإسلام، وهو ما كان فعلا.

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخذه من موقفه عليه الصلاة والسلام من هند بنت عتبة التي استماتت في حرب الإسلام زمنا طويلا، وكانت لها يد طولى في قتل أسد الإسلام حمزة رضي الله عنه، حتى قيل إنها مثلت به، وحاولت أكل كبده [91]! ومع ذلك فإنه عندما أمكنه الله من فتح مكة، ولقائه بهند في وفد النساء وهي متنكرة، وطلبها منه العفو والصفح، صفح عنها، في حوار شائق بينهما أمام الملأ، أتاح لها الرسول الفرصة لتعبر عن كثير من مشاعرها وآرائها الجريئة، وهو ما كان له أثره العميق في

(90) البخاري برقم 2331.

(91) دلائل النبوة للبيهقي، 2/ 213.

نفسهـا، كما عبرت عن ذلك بقولها: «يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحـب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يعزوا من أهل خبائك (92).

النموذج التطبيقي الثالث

ونأخـذه من معاملته لثمامة بن أثال سيـد بني حنيفة، الذي أسره المسلمون، واحتجزوه في المسجد، وأراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتركـه مدة بالمسجد حتى يعرف بنفسه حقيقة الإسلام، ويرى بأم عينيه حقيقة المجتمـع الإسلامي، بعيدا عما راكمته الحرب النفسية والدعايـة المضادة من أوهام وأباطيـل حولهما، فكان الرسول يمر به فيسألـه: مـاذا عندك يـا ثمامة؟ فيقـول: عندي خير يـا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال له عليه الصلاة والسلام: ما عنـدك يـا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر. فتركـه حتـى كان بعد الغد فقال له: ما عندك يا ثمامة؟، فقال عندي ما قلت لك.

فلمـا استيقـن الرسول عليـه الصلاة والسـلام أن الرجل قد أخذ صـورة كافية عن حقيقـة الإسلام وحقيقة المجتمـع الإسلامي، قال: أطلقـوا ثمامة. فانطلـق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجـد فقـال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يـا محمـد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبـح بلدك أحـب البلاد إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر (93).

---

(92) البخاري برقم 6171.

(93) البخاري برقم 4114.

النموذج التطبيقي الرابع

ونأخـذه مـن حرصه على تأليف قلوب النـاس، والدخول إليهم من مداخل شتى، تستلّ من نفوسهم كوامن الشر والحقد والحسد والغيرة والبغض والعداوة، وتحرك فيهم كوامـن الخير والعزة والشرف، كما نلمس ذلك على سبيل المثال من تعامله مع بعض عتاة الجاهلية الذين ظلوا يقاومون الدعوة حتى فتح مكة وما بعدها، كما حدث مع صفوان بن أمية الذي ألف الرسول قلبه على الإسلام عبر مدخل العطاء، كما جـاء ذلك في السـيرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى يوم حنين صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب حدثنـي سعيد بن المسيب أن صفوان قـال: والله لقد أعطاني رسول الله مـا أعطـاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما بـرح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي [94].

النموذج التطبيقي الخامس

ونأخذه من موقفه عليه الصلاة والسلام من رجل تريص به ليغتاله في مكـة أثناء الفتح، فانتبه إليه النبي وأوجس خيفة منه، ولم يشأ أن يعامله بالحزم والشدة الوقائية، بل سلك معه طريقا آخر أعمق تأثيرا وأكـثر حسما، وهو طريق الإحسـان. فناداه عليه السلام وقال له: ما تحـدث بـه نفسك يا فضالة؟ قال: لا شـيء، كنت أذكر الله عز وجل، فضحـك النبي عليه السلام وقـال: أستغفر الله لك، ووضع يده على صـدر فضالة، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلي منه [95].

والمتأمـل في السيرة النبويـة، يجد أن الإحسان بروحيته وأخلاقيته وجماليتـه الآسرة، كان هـو روح هذه السيرة، وعمودها الفقري، ومن

(94) مسلم برقم 2313.
(95) ابن عبدالبر، الدرر في المغازي والسير، 222 (ط2، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1983).

ثـم هــو روح المنهج فيها وأساسه، حيث تجسد في حياته عليه الصلاة والســلام، بشمول وعمق، ما أصّله القرآن بهذا الصدد من قواعد في المنهج، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (فصلت: 34، 35).

لقد كان لهذه الاستراتيجية دور كبير جدا في منهج حماية الدعوة والمحافظـة علـى منجزاتهـا في كل مراحـل الدعـوة، لأنهـا ساهمت بفعاليـة في تجنيب الدعوة متاهات الانزلاق نحو المواجهات المحمومة التـي تغيّب إنسانيـة وروحية وأخلاقية الفكر وتغطـي عليها، وتسوغ المواقف العدوانية للقوى المضادة من جهة، كما عملت على تعرية هذه الأخيرة، وعززت مكانة النبي صلى الله عليه وسلم، وأعانت خصومه على مراجعة مواقفهم واقتناعاتهم باستمرار من جهة أخرى.

وقد أعانه عليه الصلاة والسلام على التزام استراتيجية الإحسان في علاقاته الدعوية بالآخرين - سواء كانوا من أتباعه أو من أعدائه أو من غيرهما - العمق الإنساني والأخلاقي بعيد الغور في شخصيته الفـذة، التي تربت على عين الله تعالى، فجاءت رحمة للعاملين كما قال سبحانـه وتعـالى بحـق: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: 106).

وهـي المعلـم السابـع من معـالم المنهـج النبوي في حمايـة الدعوة والمحافظـة على منجزاتها، وبناء الدولة والمجتمع وتوطيد سلطانهما. ونعني بها هنا: طلب العون من الله سبحانه وتعالى على تيسير إتمام العمـل بعـد استفراغ الوسـع في الاستقلال به، والعجـز عن ذلك، أو الخـوف من عـدم النجاح فيه [96]، حيـث يلجـأ إلى استمداد العون والتأييـد مـن الله تعالى، بعد تفويض الأمر إليـه؛ من خلال استثمار قوانين التوبة والشكر والدعاء والتوكل، كمداخل كلية أساسية تشرط عملية استثمار المعطيات والإمكانات اللامحدودة لمنظومة سنن التأييد [97].

ومـن خلال تتبعنا لخطوات النبـي صلى الله عليه وسلم في عرض الإسـلام علـى الناس وتأسيس وعيهم بـه، ومواجهة مشكلات الواقع والدعوة، وتحريك الأحداث نحو هدم أسس المجتمع الجاهلي وضرب مرتكزاته الفكريـة والسياسية والاجتماعية، وبناء المجتمع الإسلامي مكانه، تبين لنا أن التوبة والشكر والدعاء والتوكل على الله، والاستعانة بـه، بعد استفـراغ الوسع والطاقة في الأخذ بمـا تتيحه له منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية من شروط الفعالية [98]، كانت من أبرز مميزات منهجه، وأقوى مؤيدات النجاح في عمله.

فهـو عليه الصلاة والسلام، كان يتحرك ضمن سنن الله في خلقه، فيأخـذ بالأسبـاب التي تتيحها لـه منظومات سنن الآفـاق والأنفس والهدايـة ابتـداء، ويتحرى العمل بها مـا وسعه التحـري، باعتبارها تشـكل المجـال التسخـيري المباشر الموضـوع تحت تصرفـه، فإذا ما

(96) رشيد رضا، تفسير المنار، 60/1، ابن عاشور، التحرير والتنوير، 148/1.

(97) الطيب برغوث، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء المجتمع الإسلامي بالمدينة (دكتوراه دولة مخطوطة).

(98) القاسمي، محاسن التأويل، 279/4، ابن عاشور، التحرير والتنوير، 151/4.

استفرغ وسعه في استجماعها، وانطلق في المراحل التالية من «الدورة الإنجازية» لفعله الدعوي أو البنائي أو الوقائي، شكر الله تعالى على ما وفقه إليه من نجاح في المراحل السابقة من «دورة الفعل»، والتجأ إليه سبحانه وتوكل عليه وفوض الأمر إليه، وتجرد من الحول والقوة، وطلب منه الحفظ والتأييد والتوفيق، وألح في الدعاء ليقينه أن النتائج المحاطة باحتمالات فشل كثيرة [99] لا يعين على تلافيها إلا الله سبحانه وتعالى.

وهذا من صميم عمق وشمولية الوعي بطبائع وخصائص ووظائف منظومات سنن التسخير الكلية التي وضعها الله تعالى بين يدي الإنسان، لاستثمار معطيات الكون الهائلة والاستمتاع بها، والتي كثيرا ما فشل الإنسان في الاستفادة منها – أي من سنن التسخير – بشكل شامل ومتكامل بل هناك من تستوعبه سنن الآفاق وحدها، وهناك ممن تمتد استفادته إلى سنن الآفاق والأنفس فقط، وهناك من يتجاوز ذلك إلى الانتفاع بسنن الآفاق والأنفس والهداية معا، وقل من يستوعب نشاطه استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد جميعا. لذلك نرى تفاوتا كبيرا جدا في مدى أصالة وفعالية واطرادية ومصداقية النشاط الإنساني، الذي يظل تناغمه وانسجامه مع فطرة الإنسان وفطرة الوجود من حوله، هو مقياس صلاحه وصلاحيته.

ولا شك أن تحقيق التناغم في الجهد الإنساني مرتبط بمدى شمولية وعمق استثمار منظومات سنن التسخير في بعدها المنظور وغير المنظور. والأنبياء في مقدمة البشر قدرة على استثمار سنن التسخير في مستوياتها جميعا، لذلك تتسم «الدورة الإنجازية» لفعلهم التغييري بأقصى درجات الأصالة والفعالية والاطراد.

(99) الميداني، العقيدة الإسلامية، 800 (ط8، دار القلم، دمشق، 1997).

والرسـول عليه الصـلاة والسلام في مقدمة الأنبيـاء جميعا قدرة علـى استثمار سنن التسخير في مستوياتها كلها، بتوازن نموذجي فذ، لا يطغـى فيـه بعد على آخـر، ولا يتقـدم منها شيء علـى غيره، بل يأخـذ كل منها مكانه وحجمه ودوره في حياته، بحسب طبيعة الموقف واحتياجاته.

نماذج تطبيقية

لا نريـد أن نختار هنا نماذج تطبيقيـة ذات أفق معجزاتي مباشر، لأنهـا من خصوصيات الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن نختار ما هـو موضع تأس واقتـداء، وبالإمكان استثمـاره باستمرار عند توفير شروطـه كما أسلفنـا، خاصة وأن الدعاء مضمـون الإجابة، كما جاء تأكيد ذلك في آيات عديدة، وإنما التركيز ينبغي أن يكون على استيفاء شروط الدعاء وليس على حمل هم الإجابة، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء»[100]. وقصـده العميق هنا هـو التأكيد على شروط الدعـاء، وفي مقدمتها استيفاء الأخذ بالأسباب والأقدار التي تتيحها منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية أولا، فإذا استفرغ الإنسان وسعه في البحث عن هذه الأسبـاب والأقدار، ثم استفرغ وسعه في الأخذ بها بالفعالية المطلوبة بعـد ذلـك، وشعر بأنه ليس بمقدوره عمل أكثر من ذلك، وأن التحدي أكـبر مـن إمكاناته، لجـأ إلى استثمار المنظومة السننيـة الاحتياطية وهـي منظومة سنن التأييد، التي يقع الدعاء ضمن مفرداتها السننية الأساسيـة، كمـا أسلفنا، لتأمين عمله من ناحيـة، ولمنح جهده فعالية إنجازيـة إضافية من ناحية أخرى. فالدعاء وإن كان نافعا قبل العمل وأثنائـه وبعده، إلا أن فاعليتـه الحقيقية المؤثرة على العمل تكون بعد

(100) ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص 38 (ط6، تحقيق عبدالله بن عالية، دار الكتاب العربي، 1999).

أو مــع استيفاء هذا العمل لشروط إنجازه المتوفرة في منظومات سنن التسخير الثلاثة السابقة.

ولعــل هذا مــا يغفل عنه كثــيرون في علاقتهم بمعطيــات منظومة ســنن التأييــد، فيريدون استثمار معطياتها من غــير مرور استثماري بمعطيــات منظومات سنن التسخير الثلاثة السابقة عليها، وهو ما لا يمكــن لهم، فتضعف فعالية أدائهم ودفعهم الاجتماعي، وينعكس ذلك علــى وضعيــة تداولهم الاجتماعــي الذي يأخذ طريقــه نحو التقهقر والضعف والغثائية.

وهــذا مــا تعلمنا إياه السنة والسيرة النبويــة بكل وضوح، كما نرى ذلك في هذه النماذج التطبيقية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول

ونجــد له صورا عديدة في هجــرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينــة. فبعد أن أخذ بــكل ما أتيح له له من أسباب الحيطة والحذر والأمــان والإعداد، توكل علــى الله واستمد العون منه في تكميل بقية شــروط الأمان، فأتاه عون الله وتأييده في صور شتى، بدءا من تعمية العيون عنه وهو يخرج من بيته إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، ومن وجــوده في الغــار والكفار واقفون على رأســه دون أن يراه أحد [101]؛ إلى لحــوق سراقــة بن مالك به ودعاء الرســول عليه: (الله أصرعه)، فصرعــه الفرس، ثــم قامت تحمحــم، فقال: يا نبــي الله، مرني بما شئت، قال: (فقف مكانك، لا تتركن أحدا يلحق بنا) [102]. فتحول بين عشية وضحاها من مطارد له إلى مؤمن بدعوته، وحامٍ لها ولقيادتها الرسالية!.

---

(101) البخاري برقم 3653.
(102) البخاري رقم 3911.

وإلى هـذه الأنـواع المختلفة مـن المؤيدات الربانيـة المباشرة وغير المباشرة، يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة: 40).

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخـذه مـن استثماره عليه الصلاة والسـلام للدعاء في مضاعفة فعاليـة أداء ودفع المسلمين الاجتماعي في مواجهة تحدي الاستئصال الـذي تعرضـت له الدعـوة والدولة والمجتمع معا، فيمـا عرف بغزوة الخنـدق أو الأحزاب، التي شكلت فعلا أخطـر تحد واجهته الدعوة. واستثمر فيها المجتمع الإسلامي بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام كل مـا أتاحته لهم منظومات سنن الآفـاق والأنفس والهداية والتأييد من معطيات.

ومن يدرس وقائع المواجهة الخطيرة، على ضوء نظرية تكامل فعالية منظومـات سـنن التسخير الأربـع، يلحظ بوضوح ودقـة كيف أخذت معطيـات كل منظومة سننية حقها من الاستثمار، وخاصة المنظومات السننيـة الثـلاث الأولى، ثـم اللجـوء المباشر بعد ذلـك إلى استثمار معطيـات المنظومـة السننيـة الاحتياطيـة، عندما توفـرت شروطها الأساسيـة، عبر إخلاص النيات، والمصابرة، والدعـاء، والتوكل على الله، وهـو ما كان له دور كبـير في مضاعفة فعالية الدفع الاجتماعي الإسلامي في نهاية المطاف.

ونذكر هنا أن المسلمين لما اشتد عليهم الكرب وبلغت قلوبهم الحناجر، كانوا يقولون للنبي عليه الصلاة والسلام: (هل من شيء نقوله؟! فقد بلغت القلوب الحناجر! قال: (نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا) (103). وكان هو يقول: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم) (104). وقد أخذ التأييد الرباني أشكالا عدة، أشار القرآن إليها في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ ﴾ (الأحزاب: ٩).

وفي الآية تنبيه تربوي للمسلمين بأهمية البعد التأييدي في حسم المواجهة لصالحهم، حتى لا يغتروا بهذا النصر التاريخي الحاسم، ولا يغفلوا عن استمرار شحذ المعاني الروحية للعبادة في حياتهم، وتضمينها في كل نواحي حركة العمران الحضاري الذي ينهضون به. وهو منهج إسلامي مطرد، يعمل على تحقيق التوازن في حياتهم، وبعد تربوي عميق لم يغفل الرسول عليه الصلاة والسلام على تأكيده، كما نرى ذلك في قوله: (لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده) (105).

النموذج التطبيقي الثالث

ونأخذه من الدور الهام الذي قام به نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه، فقد أسلم خفية عن قومه، وكان من المشاركين في حلف الأحزاب المحاصر للمدينة، فلما تآمرت بنو قريظة مع الأحزاب،

---

(103) الألباني في مشكاة المصابيح برقم 2390 (دار ابن عفان، القاهرة، 1422 هـ).

(104) البخاري برقم 4115.

(105) البخاري برقم 4114.

واشتـد الخطـب على المسلمين، سـاق الله سبحانه هـذا الرجل إلى النبـي عليه الصـلاة والسلام ليقوم بدور كبير في فـك الارتباط بين الأحـزاب وبني قريظـة، وكان ذلك من جملة المؤيـدات التي قصمت ظهر هذا التحالف الجاهلي.

فقـد أتـى إلى النبـي وقـال له: «إني قـد أسلمـت ولم يعلم قومي بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنمـا أنت رجل واحد مـن غطفان، فلو خرجت فخذلت عنا كان أحب إلينـا من بقائك، فاخرج فإن الحرب خدعـة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان ينادمهم في الجاهلية فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: قل فلست عندنا بمتهـم، فقال لهم إن قريشا وغطفان ليسـوا كأنتم، البلد بلدكم وفيه أموالكـم وأبناؤكـم ونساؤكـم، وإن قريشا وغطفان قـد جاءوا لحرب محمـد وأصحابه وقد ظاهرتموهـم عليه، فإن رأوا نهزة أصابوا، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا.

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم: قد عرفتم ودي بكم معشر قريش وفراقي محمدا، وقد بلغني أمر أرى من الحق أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا علي، قالوا: نفعل، قال: أتعلمون أن معشر يهود قد ندموا على مـا كان مـن خلافهم محمدا وأرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رهنا رجالا ونسلمهم إليكم لتضربـوا أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم؟ ثـم أتـى غطفان فقال مثل ذلك. فلما كانـت ليلة السبت - وكان ذلك مـن صنـع الله عز وجل لرسولـه وللمؤمنين - أرسل أبـو سفيان إلى بنـي قريظـة عكرمة بن أبي جهـل في نفر من قريـش وغطفان يقول لهـم: إنا لسنا بـدار مقام، قد هلك الخف والحافـر فاغدوا صبيحة غـد للقتال حتى نناجز محمـدا، فأرسلوا إليهم إن اليوم السبت وقد

علمتم ما نال منا من تعدي في السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم أحدا حتى تعطونا رهنا، فلما رجع الرسول بذاك قالوا: صدقنا والله نعيم بن مسعود فردوا إليهم الرسل وقالوا والله لا نعطيكم رهنا أبدا، فاخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم، فقال بنو قريظة: صدق والله نعيم بن مسعود، وخذل بينهم واختلفت كلمتهم وبعث الله عليهم ريحا عاصفا في ليال» [106].

ومهما استعرضنا من نماذج تطبيقية عن استثماره عليه الصلاة والسلام لمنظومة سنن التأييد، في تأمين حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، التي كان يقوم عبرها بنشر الدعوة وبناء الدولة والمجتمع والأمة، سنجد أن هناك منهجا مطردا يحكم ذلك كله، وهو الاستثمار الشمولي التكاملي أولا للمعطيات التي تتيحها له منظومات سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية أولا، فإذا تم له ذلك على الوجه الأكمل المستطاع شرع في استثمار معطيات منظومة سنن التأييد، عبر مداخلها السننية المعروفة [107]، لاستكمال شروط فاعلية الدفع الاجتماعي، وحماية منجزاته.

وبعد هذه الدائرة الكلية في المنهج، تأتي الدائرة الكلية الثانية فيه وهي انضباط المنهج الإجرائي أو الإنجازي بالقواعد الكلية التالية، التي يندر ملاحظة تخلفها في أية «دورة إنجازية» لأي فعل من أفعاله، أو موقف من مواقفه عليه الصلاة والسلام، ما دق منها وما جل:

- المبدئية الحركية البصيرة المنضبطة بثوابت الشرع ومقرراته.

- كلية الفعالية الإنجازية المتوازنة.

---

(106) ابن عبدالبر، الدرر، 176.

(107) انظر تفاصيل ذلك في دراستنا عن: نظرية الإسلام في فلسفة الاستخلاف البشري.

- الفعالية الإنجازية المتوازنة.

- الاستباقية الوقائية المتكاملة.

- الاستمرارية البنائية المتجددة.

- انتهاج استراتيجية الإحسان في العلاقة بالآخر.

- تأمين الموقف بالاستثمار المحكم لسنن التأييد، بتفعيل الشكر لله، والاستعانة به، والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه بعد ذلك (108)، لأن الأمر كله - في نهاية المطاف - بيده وحده ليفعل ما يشاء وما يريد (109)، لا معقب لحكمه.

وباستيفاء جهده عليه الصلاة والسلام لهذه الشروط، وارتكازه على هذه الأسس المكينة، التي تجعله متناغما مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، ومنسجما معها في منطلقاته، وغاياته، وحركته، استجمع عليه الصلاة والسلام أسباب النجاح في حماية الدعوة من التحريف والتشويه، والمحافظة على منجزاتها البشرية والفكرية والاجتماعية والسياسية.. والاستفادة منها في السير المحكم نحو تحقيق الأهداف الكلية الكبرى للإسلام في الأرض، وإدراك غاياته البعيدة في المراحل التالية من «الدورة الوجودية» للبشر.

---

(108) انظر موقع التوبة والشكر والدعاء والتوكل من منظومة سنن التأييد، في أطروحتنا للدكتوراه بعنوان: «المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء المجتمع الإسلامي بالمدينة».

(109) سيد قطب، في ظلال القرآن، 503/1.



الفصل الثاني

شروط الاستفادة من المنهج النبوي في حركة القدوة والدعوة والبناء

والسؤال الهام الذي يفرض نفسه علينا الآن، هو: كيف نستفيد من هذا المنهج في تحقيق الأصالة والفعالية والاطراد في حركة الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة التي نقوم بها من أجل النهوض بالمجتمع والأمة ابتداء، وتحقيق الانفتاح التكاملي الإيجابي على رشد الخبرة البشرية، وعلى الهموم والاهتمامات الإنسانية في عصرنا؟

المرجعية المعمارية للسنة النبوية

وفي هذا السياق يجب أن نعزز الوعي أولا بكون النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة البشرية النموذجية العليا المعصومة (110):

- في فهمه لحقيقة الرسالة، واستيعابه لمقاصدها في الخلق.
- وفي استيعابه لأصول وقواعد منهج الفهم لها والعمل بها.
- وفي تمثله الذاتي لها تمثلا نموذجيا فذا.
- وفي مجاهداته المتصلة من أجل تعريف الناس بها، وتأسيس وعيهم بسنن الخلق والتسخير والاستخلاف التي جاءت بها.
- وفي عمله لتغيير أوضاعهم المناقضة لذلك، وبناء نموذج حياتي منسجم مع سنن الله في خلقه.

وإن سنته وسيرته أو منهجه في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة بصفة عامة، يجب أن يمثل الإطار المرجعي الوحيد المعصوم، الذي يجب على الأمة الاقتداء به، واستلهامه في مناهج سعيها الدؤوب لمطابقة نفسها مع مقتضيات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد (111)، المهيمنة على الصيرورات الحضارية

---

(110) عبدالغني عبدالخالق، حجية السنة، ص 508.

(111) على ضوء التفاصيل المتعلقة بمراتب الاقتداء والاستلهام، كما بينها العلماء في حديثهم عن الجوانب التشريعية وغير التشريعية في سنته عليه الصلاة والسلام، أمثال: ابن قتيبة، مختلف الحديث 196، القرافي، الفروق 205/1، رشيد رضا، تفسير المنار 317/9، شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة 427، ابن عاشور، مقاصد الشريعة 30، القرضاوي، السنة التشريعية، نظرية المقاصد عند الشاطبي للريسوني... إلخ.

لحركة الاستخلاف البشري في الأرض من جهة، وتكييف جهدها مع مقتضيات منظومات سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى، التي تتحكم في تلك الصيرورات بشكل مطرد لا يتبدل ولا يتحول، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (فاطر: 43).

هذه المكانة المرجعية الخاصة للنبي صلى الله عليه وسلم في حياة المسلمين، كانت تفرض على معاصريه ردّ كل شيء إليه في حياته، وستظل تفرض على جميع أجيال الأمة عبر الزمن رد كل شيء إلى سنته أو منهجه في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة بعد مماته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (النساء: 59). وقال كذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النّساء: 65). وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (يوسف: 108).

قد سبق أن أوضحنا، في دراسات أخرى [112]، أن المنهج يحتل مكانة محورية في مفهوم البصيرة في هذه الآية، وأن الاتباعية الحقيقية له، عليه الصلاة والسلام، لا تتحقق إلا باستيفاء شرط البصارة، الذي لا يمكن تحقيقه إلا باكتشاف المنهج واستيحاء قواعده الكلية في حركة الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، باعتبار المنهج هو وحده الذي يحرر حركة التأسي والاقتداء والمتابعة والاستثمار.. من الوتيرية الآلية، ومن الانتقائية التلفيقية، ومن الاتباعية الخرافية، ويضمن لها البصارة أو المقاصدية الموضوعية المنضبطة؛ في الفهم والإنجاز معا [113].

فالحكمة هي جوهر المنهج، والمنهج هو جوهر الحكمة في السنة وفي الحركة النبوية معا، والحكمة أو المنهج هما سر القوة والمكنة على الإطلاق، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، كما جاء ذلك في القرآن: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ (البقرة: 269). والرسول عليه الصلاة والسلام أمر بانتهاج الحكمة في أمره كله، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل: 125). وكان من مهامه التربوية الأساسية تعليم الناس الحكمة، كما جاء ذلك في

---

(112) انظر مثلا: «المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها»، و«قواعد المنهج في الحركة النبوية».
(113) انظر دراستنا عن: «الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية» طبعة كوالالمبور، ماليزيا، 1999.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾(آل عمران: 164).

ولابن القيم كلمة عميقة في مفهوم الحكمة وأبعاد المنهجية المتكاملة، التي نركز عليها هنا، نوردها لأهميتها: «والحكمة حكمتان: علمية وعملية؛ فالعلمية هي الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها؛ خلقا وأمرا، قدرا وشرعا. والعملية هي وضع الشيء في موضعه.

وأساس الحكمة أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعدّيه حده، ولا تعجّله عن وقته، ولا تؤخره عنه. فإنه لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعا وقدرا، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر، كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاثة، بأن تعطيَ كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها فتكون متعديا مخالفا للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوّتها..

فالحكمة إذن فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.. فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود وفي العبد فسببه الإخلال بها، فأكمل الناس أوفرهم منها نصيبا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال أقلهم منها ميراثا [114].

والسنة والسيرة النبوية تجسيد فذ لهذا المفهوم المنهجي الشمولي التكاملي للحكمة، وهو ما يجب أن يتأسس الوعي به ويتعمق في أجيال المجتمع والأمة عامة، ونخبها الفكرية والسياسية التي تتصدى

(114) تهذيب مدارج السالكين، 776/2 (تهذيب عبدالمنعم صالح العزي، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000).

لعمليات التغيير والإصلاح والتجديد خاصة، حتى لا تظل السنة أو السيرة مجرد نصوص أو أحداث جزئية مبعثرة، لا يمكن الاستفادة منها بشكل فعال وأصيل، مهما كان حبنا وإخلاصنا لها، وحماسنا في الاستفادة منها؛ لأن الاستفادة مشروطة بالمنهج الذي يمكننا من فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

الطابع الخامّي للسنة النبوية

وحاجتها إلى التجهيز الاستثماري المطرد

وفي هذا السياق، ينبغي أن يُدرك الطابع الخامّي للسنة والسيرة النبوية، بل وللقرآن الكريم كذلك، بالنسبة لكل أجيال الأمة بعد عصر النبوة، واكتمال منظومة سنن الهداية؛ ذلك لأن هذه المادة المعرفية المتميزة الحجية والسلطة الروحية والتشريعية كانت تخضع إلى عملية تجهيز أو إعداد استثماري منهجي من قبل النبي عليه الصلاة والسلام بشكل مستمر، ليجعلها أكثر أصالة وفعالية في وقتها، وهو ما تحتاجه في كل وقت، لكي تمنح المستثمر لها نفس الأصالة والفعالية، فإذا ذهل عن ذلك أو أُغفل أمره، جاءت عملية الاستثمار مضطربة هزيلة مشوهة.. لا يرجى منها نفع ولا تأثير في مجريات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الفاعلة في حركة الاستخلاف البشري باستمرار.

ومن هنا، فإننا نقصد بالطابع الخامّي في هذا المقام: احتفاظ المادة المعرفية في القرآن والسنة والسيرة النبوية • بحجيتها التشريعية وسلطتها الروحية والقانونية الذاتية المطلقة على الصعيد

• على تفاوت طبعا في هذه الحجية والسلطة بين حجية القرآن والسنة من ناحية، وحجية السيرة من ناحية أخرى، باعتبارها عملية تنزيل ميداني للوحيين، تخضع لمؤثرات ومعطيات الزمان والمكان في كثير من تطبيقاتها.

المبدئي أو التشريعي، واحتياجها المستمر على الصعيد التسخيري أو الاستثماري.. إلى تجهيز أو تحضير منهجي متكامل، يجعلها قابلة وميسرة للتنزيل على الوقائع لامتناهية التنوع والاختلاف والتشابك والتجدد.. التي تفرزها حركة الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة باستمرار، في إطار استجابتها الفعالة لحاجات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة، ومواجهتها لتحدياتها المهيمنة على الصيرورة الاستخلافية للبشر من جهة أخرى.

فالمادة المعرفية في القرآن والسنة والسيرة في أصالتها الذاتية، وسعتها وتنوعها وشموليتها، وقابليتها المستمرة للاستثمار.. تظل بالنسبة لكل جيل معاصر معني بتأصيل حركة حياته وتعميق إسلاميتها، مادة خاميّة أو أولية مرجعية معيارية، لا تؤتي ثمارها المرجوة، بأصالة وفعالية واطراد، إلا عبر عملية تجهيز منهجي موضوعي متكامل، يجردها من خصوصيات الزمان والمكان، ويحررها من ملابسات وعوارض الأحوال.. التي تحكمت في «دوراتها الإنجازية» النموذجية السابقة، ليصلها بخصوصيات الزمان والمكان المعاصرين، ويربطها بملابسات وعوارض الأحوال القائمة أو الراهنة؛ وصْلَ احتكام إليها لا وصل تحكم فيها، وربط استثمار مقاصدي موضوعي منضبط، لا ربط اتباعية وتيرية آلية متعسفة، أو انتقائية تلفيقية مميعة!.

فالتجهيز المنهجي المتكامل للمادة المعرفية للقرآن والسنة والسيرة.. تفرضه طبيعة ومكونات «الدورة الإنجازية» للفعل البشري، التي يجب أن تستوعب المقاصد والغايات المحددة من قبل النص الشرعي، كما تستوعب أوضاع المكلفين وحاجاتهم الآنية، التي تفرضها عليهم تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد في عصرهم، وبيئتهم، وظروفهم.. كأفراد وجماعات ومجتمعات، ثم يمتد الاستيعاب إلى الآليات المنهجية، والإمكانية المتاحة للإنجاز، لينتهي أخيرا باستيعاب مآلات «الدورة الإنجازية» للفعل، وشروط المحافظة على منجزاته بعد ذلك.

وكمـا هو واضـح من معطيـات قانون «الـدورة الإنجازيـة» للفعل البشـري، فإن استثمار المعطيـات المعرفية للقرآن والسنة والسيرة في تأصيل وتفعيل حركة إسلامية الحياة، يحتاج فعلا إلى تجهيز منهجي متكامـل، ينقـل الإسلام مـن أعماق التاريـخ وملابساتـه وعوارضه، ويضعـه في عمق العصـر وملابساته وعوارضه، ليقـوّم عقائد الناس القائمـة فعـلا، ويصلـح تفكيرهم، ويبنـي ثقافتهم، ويؤطـر سلوكهم وأنظمـة حياتهم، كمـا أصلح أوضاع المعاصريـن لأول عهده بالأرض، وأنشـأ منهم خـير أمة أخرجت للناس! وهو المعنـى العميق الذي كان الإمام مالك - رضي الله عنه - يستبطنه في مقولته السننية المنهجية الشهيرة: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» (115)، التي لا تعنـي طبعا إعـادة الاستنسـاخ الحـرفي البليد للتجربـة النبوية في القيادة والدعوة والبناء والمواجهة، بل تعني بالأساس استلهام ما فيها من منهج ابتداء، واستثمار ما فيها من ثوابت سننية مطردة في التغيير الفكري، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري بعد ذلك.

وأود أن أذكـر هنـا بعض العينات والنماذج مـن هذه المادة المعرفية الخاميّـة المكتـزة في المـيراث النبوي، والتي تحتـاج فعلا إلى تجهيز منهجـي يهيئها للاستثمار المعاصر، بدونه لا يمكنها أن تمنح فعاليتها التسخيرية النموذجية لمن يريد أن يستفيد منها، وهو غافل عن شرط التجهيـز المنهجي لها، فتكون النتيجة معاكسة لما قصد إليه لأن المادة المستثمـرة ربما تحولـت في حياته وفي محيطه إلى مـادة غير فعالة، بالرغم من احتفاظها بفعاليتها الذاتية.

وقد وردت هذه النمـاذج التطبيقية التي أذكرها هنا، ضمن نماذج تطبيقيـة كثـيرة، أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق إجابته عن سؤال يتعلق بتفاضل العبادات، وبمراتب الاقتداء بالسنة النبوية، وهو مبحـث منهجـي أصولي نفيس، يدل على مـدى رسوخ قدم ابن تيمية في فقه المنهج.

(115) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، 428/2.

وأيضـا فالاقتداء به يكون تارة في نوع الفعل، وتارة في جنسه، فإنه قـد يفعل الفعل لمعنى يعم ذلك النوع وغـيره، لا لمعنى يخصه، فيكون المشروع هو الأمر العام.

النموذج التطبيقي الأول

مثـل ذلك احتجامـه صلى الله عليه وسلم، فـإن ذلك كان لحاجته إلى إخـراج الدم الفاسد، ثم التأسي هل هو مخصوص بالحجامة، أو المقصود إخراج الدم على الوجه النافع؟ ومعلوم أن التأسي هو المشروع، فـإذا كان البلد حـارا يخرج فيه الدم إلى الجلـد كانت الحجامة هي المصلحـة، وإن كان البلد باردا يغور فيه الدم إلى العروق كان إخراجه بالفصد هو المصلحة.

النموذج التطبيقي الثاني

وكذلك إدهانه صلى الله عليه وسلم: هل المقصود خصوص الدهن، أو المقصـود ترجيل الشعر؟ فـإن كان البلد رطبا وأهله يغتسلون بالماء الحـار الذي يغنيهم عن الدهـن، والدهن يـؤذي شعورهم وجلودهم. يكـون المشروع في حقهـم ترجيل الشعر بما هو أصلح لهم. ومعلوم أن الثاني هو الأشبه.

النموذج التطبيقي الثالث

وكذلـك لمن يأكل الرطب والتمر وخبز الشعير، ونحو ذلك من قوت بلـده. فهل التأسي بـه أن يقصد خصوص التمر والشعير، حتى يفعل ذلـك مـن يكون في بلاده لا ينبت فيها التمـر، ولا يقتاتون الشعير، بل يقتاتـون الـبرّ أو الأرز أو غـير ذلك؟ ومعلوم أن الثـاني هو المشروع.

والدليل على ذلك أن الصحابة لما فتحوا الأمصار كان كل منهم يأكل من قوت بلده، ويلبس من لباس بلده، من غير أن يقصد أقوات المدينة ولباسها، ولو كان هذا الثاني هو الأفضل في حقهم، لكانوا أولى باختيار الأفضل.

النموذج التطبيقي الرابع

وعلى هذا يبنى نزاع العلماء في صدقة الفطر: إذا لم يكن أهل البلد يقتاتون التمر والشعير، فهل يخرجون من قوتهم البرّ والأرز، أو يخرجون من التمر والشعير؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فرض ذلك، فإن في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة الفطر صاعا من تمر، أو صاعا من شعير على كل صغير أو كبير ذكر أو أنثى، حر أو عبد من المسلمين)[116]. وهذه المسألة فيها قولان للعلماء، وهما روايتان عن أحمد، وأكثر العلماء أنه يخرج من قوت بلده، وهذا هو الصحيح كما ذكر الله ذلك في الكفارة بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (المائدة: 89).

النموذج التطبيقي الخامس

ومن هذا الباب أن الغالب عليه وعلى أصحابه أنهم كانوا يأتزرون ويرتدون؛ فهل الأفضل لكل أحد أن يرتدي ويأتزر ولو مع القميص؟ أو الأفضل أن يلبس مع القميص السراويل من غير حاجة إلى الإزار والرداء؟، هذا أيضا مما تنازع فيه العلماء، والثاني أظهر وهذا باب واسع.

وهذا النوع غير مخصوص بفعله وفعل أصحابه، بل وبكثير مما أمرهم به ونهاهم عنه، وهذا سمته طائفة من الناس: «تنقيح المناط»

(116) البخاري برقم 1503.

وهو أن يكون الحكم قد ثبت في عين معينة، وليس مخصوصا بها، بل الحكم ثابت فيها وفي غيرها، فيحتاج أن يعرف «مناط الحكم» [117].

إن مثل هذا الفقه المقاصدي المنهجي المنضبط، هو الذي يحتاجه التعامل مع السنة النبوية، ونقلها إلى قلب الحياة المعاصرة، حية متألقة، فعالة التأثير في واقع الناس، كما هو شأنها دوما، عندما يتم تجهيزها جيدا للتطبيق المعاصر على يدي عقل منهجي أصولي، يمتلك القدرة على الانفتاح التكاملي على سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من ناحية، وعلى سننه سبحانه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من ناحية أخرى، التي تتحكم في حركة الاستخلاف في الأرض.

المنهج أساس أصالة التأسي وفعالية الاستثمار

وتأسيسا على ما سبق، فإن أصالة وفعالية التجهيز الاستثماري للقرآن والسنة والسيرة النبوية، لا تتحقق على الوجه المطلوب إلا عبر استيعاب قواعد المنهج النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، بشكل موضوعي متكامل.

وبناء على هذا، نرى أن العمل التجديدي للأمة لكي يتحقق عمليا بصفة «الإسلامية» أو «الأصالة»، ويتمكن من حماية مضمونه الرسالي، والمحافظة على منجزاته، والاستفادة منها في الدفع بأوضاع الأمة إلى المزيد من التأصُّل والفعالية والتحسن، والاقتراب من الأهداف الاستراتيجية للرسالة، عليه أن يستلهم المنهج النبوي في آفاقه السننية الكبرى، وخطواته الكلية الثابتة، التي تمثل نتائج هذه الدراسة أهم مفاصله الأساسية كما نعتقد.

---

(117) مجموع الفتاوى، 22/ 165.

وبغير هذا الاستلهام البصير لخطوات المنهج النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، تظل جهود الأمة مشتتة ضائعة لا تعرف طريقها إلى غاياتها وأهدافها، وهو ما نبه عليه الإمام مالك رضي الله عنه بمقولته الشهيرة: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) [118]. أي أن نهوض مجتمع المسلمين لا يمكن أن يتم إلا من خلال الظروف والشروط العامة، التي تم فيها ميلاد المجتمع القدوة الأول، تحت رعاية الوحي وتسديده المباشر [119]، فجاء نموذجا فذّا في التطابق مع أهداف الرسالة ومقاصدها في الخلق من جهة، وفي التناغم مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى، وهو ما يؤهله لاحتلال موقع المرجعية والقدوة المعيارية بجدارة على مرّ التاريخ.

فالعمل التجديدي على هذا الأساس في حاجة إلى المزيد من الاقتراب البصير في مناهج عمله من المنهج النبوي، والسعي الدؤوب للتحقق عمليا وبصورة تدريجية بالثوابت الأساسية الكبرى لهذا المنهج، المتمثلة في:

- المبدئية البصيرة، والانشداد المستمر لثوابت الرسالة ومقرراتها على الصعيد العقدي والفكري والاجتماعي والسياسي؛ إذ التغيير يكون إسلاميا وحضاريا، بقدر ما يحافظ على عمق أصالته، ويمتد بها في آفاق المعاصرة المتوازنة..

- الواقعية في النظرة إلى الأوضاع الإنسانية القائمة، وفي التعامل معها تسويغاً وتغييرا، لتكييفها تدريجيا مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وتأهيلها للاستجابة المتكاملة لاحتياجات وتحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

(118) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 69.

(119) عمر عبيد حسنة، مجلة الأمة، ع 51، ص: 5.

- الفعالية الإنجازية المتوازنة في الاستفادة من الظروف والإمكانات المتاحة، وتوظيفها بشكل جيد ودقيق في التأثير السريع والعميق على مجريات الأحداث داخليا وخارجيا.

- الاستمرارية في الاندفاع بهمة وانتظام نحو الهدف مهما كانت التحديات.

- واعتماد استراتيجية الإحسان في العلاقة بالآخرين كأصل في التعامل معهم، وعدم التهاون فيه، أو العدول عنه إلا في الحالات الاستثنائية الخاصة المنضبطة شرعيا ومصلحيا.

- الاستثمار المحكم لسنن التأييد، بالشكر لله، والتضرع له بالدعاء، والاستعانة به، والتوكل عليه، وتفويض الأمر إليه، للتكفل بالأمر بعد استفراغ الوسع في الأخذ بالأسباب، بدءا من الفهم الصحيح، ومرورا بالتخطيط المحكم، وانتهاء بالإنجاز الفعال، فالمراجعة الدقيقة، فالتقويم المستمر.

فهذه هي الضمانات الأساسية التي تتيح للتجديد حركة أصيلة قوية، يتجاوز بها العجز الملاحظ في مجال حماية المحتوى الرسالي لمشاريع البناء، والمحافظة على منجزاتها البشرية والمادية والمعنوية.

وكل ما سبق يضعنا أمام جملة من الأسئلة الجوهرية التي ستتحكم الإجابة عنها - في نظرنا - في الآفاق المستقبلية لحركة تجديد الأمة، وبالتالي في مستقبلها ومصيرها إلى حدّ بعيد.

وهـذه الأسئلـة المفصلية التي يجب أن تتحـول إلى مشاريع علمية وتربوية واجتماعية مستقبلية ذات أولوية قصوى، تجنَّدُ لها الكفاءات الكبرى في الأمة، وهي على سبيل المثال:

- كيـف يتحقق العمل التجديدي للأمة بهـذه المبدئية العالية التي تعـد شرطا قاعديًا لحماية المضمون الرسالي للعمل، والمحافظة على منجزاتـه في كل الظروف والمراحل وكيف تصل الأمة إلى ذلك؟ وعبر ماذا؟ وقبله لماذا يضعف - أو يغيب أحيانا - البعد المبدئي في العمل؟ وما آثار ذلك على مردوده ومصداقيته؟

- وكيـف يتحقق هذا الجهد بالواقعيـة في النظرة إلى الأمور، وفي وضـع مشاريع البناء والمواجهة، وفي إنفـاذ هذه المشاريع؟ وقبل ذلك، لماذا يتسم جزء كبير من الجهد التجديدي للأمة أحيانا بالمثالية وعدم الواقعيـة في تصـور الأمور ومواجهتها؟ وما آثـار ذلك على مردوديته ومصداقيته؟

- وكيـف يتحقـق الجهـد التجديدي للأمـة بالفعاليـة اللازمة في الاستفـادة القصوى مـن الظروف المحيطة والإمكانـات المتاحة؟ وما أسبـاب العطالـة واللافعالية التـي تلاحظ في جزء كبـير من العمل التجديدي للأمة؟ وما أثر ذلك على مردوديته ومصداقيته؟

- وكيـف يحقق هذا العمل لنفسه القدرة على الاستباقية الوقائية المتجـددة التي تستشـرف الأخطار والتحديـات الداخلية والخارجية مبكرا، وتتهيأ لمواجهتها بشكل فعال؟

- وكيف يضمن هذا العمل لنفسه الاستمرارية وتواصل الاندفاع المنتظم نحو الأهداف المرسومة مهما كانت العوائق والمثبطات؟ وكيف يتجاوز دائرة «الاستئنافية» أو البداية الصفرية المزمنة، التي أضرت به كثيرا، وعرضت مصداقيته لاهتزاز كبير؟

- وكيف يرتقي العمل التجديدي للأمة إلى مستوى التوازن المطلوب في الأخذ بالأسباب، وفي التوكل، وفي الإعداد والاستعانة؟ باعتبار ذلك مؤشرا حقيقيا على سلامة الفهم من جهة، وشرطا أساسيا لصحة العمل وفعاليته من جهة أخرى.

الدراسات السننية المطلوبة للفهم والاستثمار

ومن كل ما سبق، ندرك كيف أن دراسات سننية معمقة يجب أن تنطلق، لتأسيس الوعي المتكامل بمنظومات سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على الصيرورة الاستخلافية للبشر من ناحية، ومنظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، الشارطة للفعالية التسخيرية المتحكمة بشكل حاسم في الحركة الاستخلافية للبشر من ناحية أخرى.

فالإجابات العملية على الأسئلة السابقة، ترتبط ارتباطا شرطيا حاسما بطبيعة ومستوى وحجم الوعي العقدي والمعرفي والوظيفي أو الفني بهذه المنظومات السننية المذكورة، التي إذا تكامل الوعي بها منحت الإنسان فهما أعمق لسنن الحياة، وفعالية أكبر في استثمارها، وأصالة تكاملية أرسخ في الأداء، ومن ثمة إيمانا أقوى بالله، وعبودية أرقى وأمتع له سبحانه، باعتبار الارتقاء في مدارج الإنسانية والسعادة والكمال البشري يرتبط بمستوى الارتقاء في مدارج العبودية لله سبحانه وتعالى، والارتقاء في مدارج العبودية يرتبط بطبيعة وحجم ومستوى تكاملية الوعي السنني العقدي والتسخيري والاستخلافي.

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: 53). فالإنسان كلما تعمق وعيه بسنن الله في الحياة كلما استحكم إيمانه وارتقت عبوديته لربه، وتحركت خلافته في الأرض على خط العبودية والخيرية والعالمية والكونية.

لذلك فإن حركة الفهم والاستثمار الصحيح والفعال للخيرية الإسلامية المكتنزة في الكتاب والسنة، تحتاج إلى الاستفادة القصوى من الخبرة المعرفية البشرية المعاصرة، في العلوم الإنسانية والاجتماعية والكونية بكافة فروعها ابتداء. فقد وصلت هذه العلوم إلى خبرات سننية بالغة الأهمية على صعيد المناهج والأفكار وآليات الاستثمار والتحكم، وكشفت عن كثير من حقائق الوحي وأسرار التشريع، ووفرت لها معطيات وشروطا نوعية مثالية فعالة، للبوح بالمزيد من أبعاد خيريتها وإعجازها وجاذبيتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية.. التي تدفع إلى المزيد من انشحاذ الفعالية التسخيرية لها في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات.

ولا ينبغي أن يتوقف واجب الأمة أو طموحها عند مجرد الاستثمار النوعي للخبرات البشرية المعاصرة، في مجال المعرفة السننية، بل يجب أن تتجاوز الأمة هذه المرحلة، إلى مرحلة الإبداع الذاتي للخبرة المعرفية والحضارية المنطلقة من معطيات وإشارات وآفاق وطموح القرآن والسنة، لتثري الخبرات المعرفية والحضارية المعاصرة وتصحح مسار بعضها من ناحية، ولتنتج خبرات معرفية جديدة في مجال الوعي بمنظومات سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسننه سبحانه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وسننه في الدعوة والبناء والمواجهة، وسننه في الأصالة والفعالية والاطراد من جهة.

إن كل منظومــة من هــذه المنظومات، المشار إليها سابقا، في حاجة إلى توسيع وتعميق مجال اكتشاف السنن الإلهية المكونة لها، والفاعلة فيهــا من ناحية، واكتشــاف سنن التحكم الاستثمــاري أو التسخيري لهــا من ناحية أخرى، إذا أردنا فعــلا أن نستفيد من معطيات الوحي وخيريته وقواه الهائلة، وأنْ نمتد بجاذبيته وإشعاعه إلى آفاق العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية المكتنزة فيها، تجاوبا مع طموح الإســلام في الظهور الحضــاري الإنساني، كما أسس لذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝﴾ (الصف: 9).

ولا يخفى أن الظهور الحضاري مرتبط بمدى وعي المجتمع والأمة بحقيقة «قانون التدافع والتجديد» الفاعل في حركة التاريخ والحضارة الإنسانية باطراد، والاستجابة المتوازنة والمتكاملة لشروطه الموضوعية المتكاملــة، التي منها طبعا، الوعــي التكاملي المتجدد بحقائق الإسلام العقدية والعبادية والفكرية، وبثوابته الأخلاقية والمنهجية التي تشحذ الطاقات العقلية والروحية والعاطفية للمجتمع والأمة، وتركز جهدها بشــكل فعال في عمليــة الإنجاز والإبداع الحضاري، بما يكفل لها، أي للمجتمع والأمة، اقتدارا تسخيريا نوعيا متطورا، يمكنها من المواكبة، فالمنافســة، فالريــادة الحضارية الإنسانية المتوازنــة، التي هي طموح الأمة وقدرها باستمرار، كما يؤكد ذلك مفهوم الأمة الوسط في القرآن الكريم.

وهــذا يعني أن مؤسسات ثقافيــة واجتماعية واقتصادية وسياسية رساليــة نوعية عديــدة يجب أن تظهر لتجسيد هــذا الوعي وحمايته وتطويره، وتوريثه للأجيال، في مقدمة ما يجب أن يورث عن المجتمع، مــن أجل تنقيــة المنظومة الثقافيــة الذاتية والإنسانية مــن كل ألوان الثقافــة اللاسننية، وتأسيس ثقافــة سننية متكاملة، تمتصها الأجيال بشــكل تلقائــي يومــي، عبر كل مجــالات ووسائــط التربيــة والتأثير والتكييف في المجتمع.

فالصحوة يجب عليها أن تعنى كثيرا بمراجعة وتقويم وتصحيح أوضاع المؤسسات الفكرية والتربوية والثقافية والاجتماعية القائمة، حتى تستجيب لاحتياجات التغيير والإصلاح والتجديد الحضاري من ناحية. كما يجب عليها أن تنشئ مؤسسات فكرية وتربوية وثقافية واجتماعية إضافية جديدة، تكمل دور ومهمة المؤسسات التقليدية العريقة القائمة في المجتمع من ناحية أخرى، على أن يتم كل ذلك على أرضية أو خلفية الوعي السنني التكاملي، الذي يجب أن يحكم كل مراجعة نقدية تقييمية للخبرة السابقة، أو تصحيح تقويمي للواقع القائم، أو إضافة إبداعية تجديدية، بحيث يجب أن يُستبعد كل ما ليس له علاقة بالوعي والخبرة السننية، أو لا يخدمها؛ من اعتقاد أو فكر أو سلوك أو مناهج تفكير وعمل، لأن ذلك لا يخدم النهضة ابتداء، ولا يخدم الخلافة البشرية في الأرض انتهاء، بل يبقي على الخرافة والتخلف العقلي والروحي والأخلاقي والحضاري، ويقود إما إلى الإمعية والغثائية والهوان الحضاري، وإما إلى الاستكبار والغطرسة الحضارية.

وينبغي أن نستذكر هنا الدور المركزي الحيوي الحاسم، الذي قام به القرآن والسنة في مراجعة وتصحيح أوضاع بيئة ميلاد المجتمع الإسلامي الأول، الذي سيكون طليعة التغيير الحضاري الحاسم في العالم. فقد قام القرآن والسنة بمراجعة شاملة وعميقة لوعي المجتمع العقدي والفكري والمنهجي، والسلوكي والأخلاقي والاجتماعي.. وصفاه من كل ما هو غير سنني، وأحل محله وعيا سننيا جديدا، غير نظرة الإنسان لنفسه، وللكون، وللحياة، ولله، وللطاقات التسخيرية المبثوثة في الأرض، فتغير بذلك وضعه تماما، وتغير وضع الوقت والتراب وكل الإمكانات التسخيرية الهائلة، التي ظلت أمدا طويلا بلا فعالية، وتحرك عبر ذلك التحول الذاتي العميق، تاريخ المنطقة والعالم كله.

فالتاريخ لا يتحرك في اتجاه العلمية والتكاملية والرسالية والحضارية والعالمية والإنسانية والكونية والعبودية، إلا عبر وعي سنني متكامل، يحرر الإنسان من الخرافة والوهم، والفوضى، والقدرية المقعدة، والمناقضة لحقائق الكون والحياة، ويصله بأسرار وقوانين هذه الحقائق، ويعلمه كيف يبحث عنها، ويكتشف آليات عملها، ويتمكن من التحكم التسخيري فيها، والاستثمار الفعال لها، في تلبية حاجات خلافته في الأرض، ومواجهة التحديات التي تحف بها، والأخطار التي تهددها.

وأذكر هنا بعض الأمثلة عن هذا التحول الذي أحدثه الإسلام في وعي المجتمع، وكان له تأثيره العميق في أداء المجتمع وفعاليته الحضارية بعد ذلك، وهو ما يجب أن تمضي فيه نهضة الأمة في طريقها مرة أخرى نحو آفاق العالمية والإنسانية والكونية.

النموذج التطبيقي الأول

ونأخذه من موقفه عليه الصلاة والسلام من التفسير غير العلمي للظواهر الاجتماعية والحقائق الكونية، حيث نلحظ على سبيل المثال أنه لما مات ولده إبراهيم وحدث أن وقع كسوف للشمس، فقال بعض الناس بأن ذلك حدث بسبب موت ابنه، فقال عليه الصلاة والسلام مصححا للفهم، ومقوما للموقف بما ينسجم مع سنن الله في الآفاق، ويبعد إقحام الخرافة والوهم في تفسير الظواهر والسنن الكونية: (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا) [120]. فانتقل الموقف بهذا الوعي من مجال الخرافة والسلبية إلى مجال المعرفة التربوية الإيجابية، التي تصل الإنسان بالله ابتداء، وتعمق شكره له على نعمه،

(120) البخاري برقم 983.

وتركز اهتمامه على استثمار سنن الله، بمعرفة طبائعها وآليات عملها، وتحرره من النظرة الذاهلة للأشياء والظواهر الكونية، التي كثيرا ما قادت إلى الشرك والضعف والتقهقر في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري.

النموذج التطبيقي الثاني

ونأخذه من موقف القرآن من الصدمة النفسية التي أصابت المسلمين عقب هزيمة أحد، وكادت تؤدي إلى زلزلة يقين بعضهم، حيث تساءل بعض الناس: كيف تحدث لهم هذه الهزيمة الكبرى وهم يُدَافِعُون عن الإيمان والحق، وعدوهم يُدَافِعُ عن الشرك وينتصر له؟! لم يتمكنوا من استيعاب الموقف ودخلوا في بلبلة خطيرة، فجاء القرآن يراجع الموقف من أساسه، ويصحح الفهم، ويعمق الوعي السنني المتكامل في المجتمع، ويحرره من الوهم واللامنهج، بوضع الحدث في إطاره السنني الصحيح الواضح البسيط. فبين لهم أن ما حدث هو نتيجة منطقية لمخالفتهم لبعض سنن المواجهة، فكان من الطبيعي جدا أن تنطبق عليهم سنن الله في الخلق، وتلحق بهم الهزيمة [121]، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ (آل عمران: 165).

وبهذا الموقف العلمي المنهجي الواضح، أخرج القرآن الحدث من نطاق الغموض والوهم والحيرة، والذاتية والعاطفية إلى نطاق التفسير الموضوعي السنني الملموس لما حدث، فتعلم المسلمون من ذلك أكبر وأخطر درس تربوي في حياتهم، وهو فاعلية السنن الإلهية في صيرورات حركة الاستخلاف البشري، حيث أدركوا مدى أهمية

---

(121) سيد قطب، في ظلال القرآن، 514/1.

الوعي بسنن الله في الحياة ابتداء، وأنه لا يتحرك ولا يتغير شيء في الحياة إلا وفقا لهذه السنن ثانيا، وأن هذه السنن الفاعلة في الحياة لا يغني بعضها عن بعض، بل هي تؤتي مفعولها وفعاليتها بصورة تكاملية.

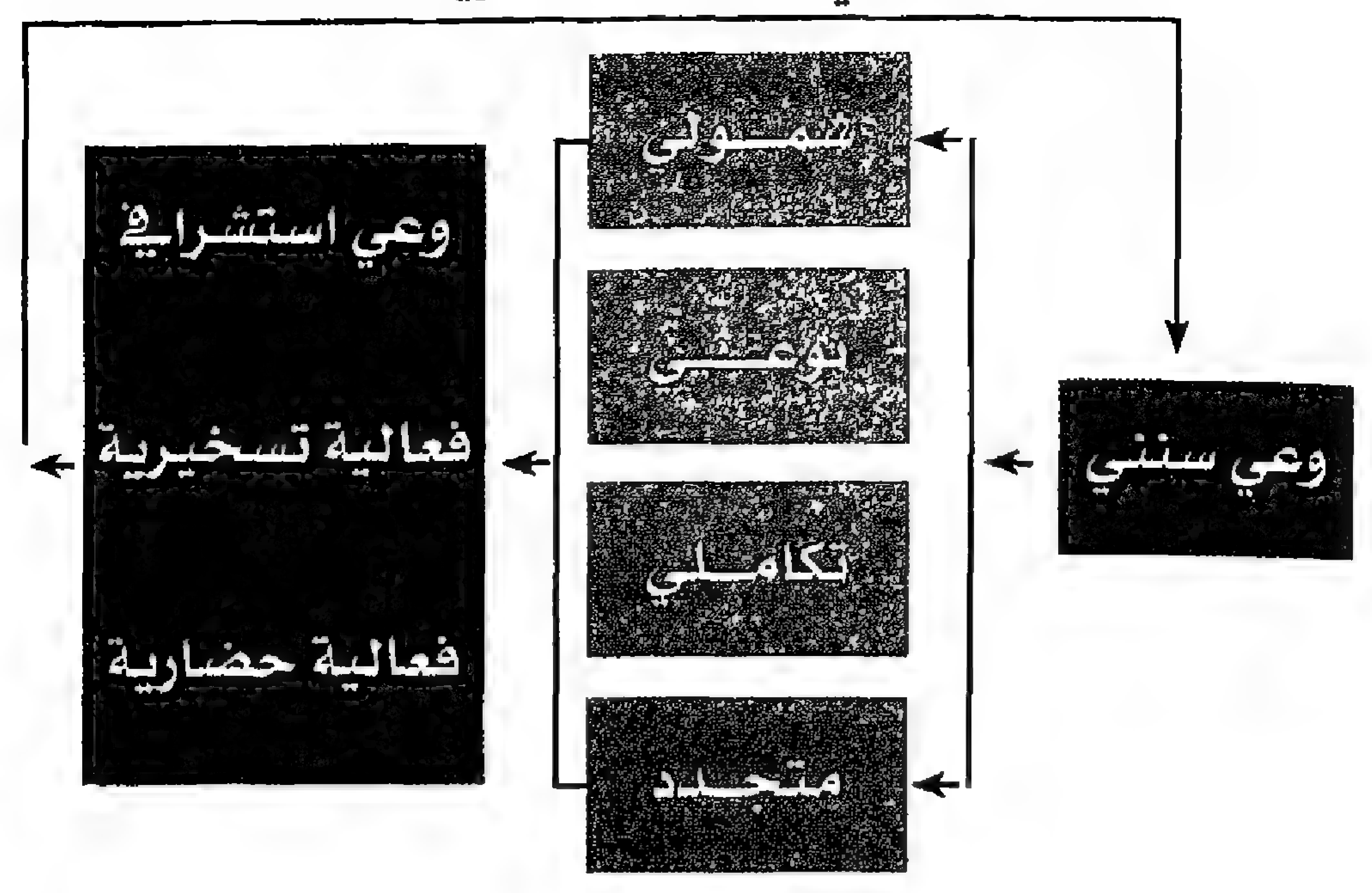
إن هذا الدرس التربوي، البالغ الأهمية، رسخ أقدام الطليعة الإسلامية خاصة، والمجتمع الإسلامي عامة، على طريق الفعالية الحضارية التكاملية النموذجية البناءة، التي هي باستمرار محصلة وعي شمولي بسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسننه سبحانه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من ناحية، واستثمار تكاملي لمعطيات هذه السنن في العدوة والبناء والمواجهة من ناحية أخرى. وابتعد بهما عن مزالق ومتاهات الفعالية الاهتلاكية الهدمية المنهمكة [122]، التي هي باستمرار محصلة ضعف وتشتت أو اضطراب الوعي المعرفي والتسخيري بمنظومات السنن المشار إليها آنفا، لدى صفوة المجتمع وجمهوره الواسع.

بعد هذا أقول: إن كل مظاهر القوة والأصالة والفعالية والتكامل والاستثنائية والإبهار.. التي تلحظ في الإنجازية الحضارية للصفوة الإسلامية والمجتمع الإسلامي عبر التاريخ، هي نتيجة منطقية لرسوخ الوعي بفاعلية السنن الإلهية في صيرورات حركة الاستخلاف البشري لدى هذه الصفوة أولا ولدى القاعدة الجماهيرية العريضة للمجتمع والأمة ثانيا. وكل ما يلحظ من سلبية وضعف وتشرذم، وتنافر واهتلاكية وتخلف وإمعية وغثائية حضارية، هو نتيجة منطقية حتمية لضعف واضطراب الوعي السنني العقدي منه والتسخيري والاستخلافي في المجتمع والأمة.

---

(122) للمزيد من الإيضاحات حول مفاهيم ومستويات الفعالية، راجع دراساتنا عن: «مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية» و«الفعالية الحضارية والثقافة السننية» و«نظرية الإسلام في الاستخلاف البشري» و«مقدمة في الوعي الاستخلافي الأعلى».

القانون التأسيسي
الكلي للفعالية الحضارية



وفي ما يلي مخطط توضيحي للآلية السننية للقانون التأسيسي الكلي للفعالية الحضارية، والدور الجذري للوعي السنني فيه. وقد شرحنا هذا القانون بالتفصيل في دراسات نظرية وتطبيقية سابقة، يمكن العودة إليها للمزيد من التفاصيل [123].

فالفعل الحضاري الأصيل الفعال المطرد، الذي يستجيب لتطلعات واحتياجات وتحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري في الأرض، هو باستمرار محصلة فعل تسخيري أصيل وفعال ومطرد.

والفعل التسخيري الأصيل الفعال المطرد، هو باستمرار محصلة وعي سنني شمولي تكاملي نوعي متجدد، تحمله صفوة المجتمع والأمة، كما تحمله القاعدة الجماهيرية العريضة للمجتمع، وتستثمره في تلبية حاجات المجتمع والأمة والإنسانية، بكل كفاءة وجدارة ورسالية.

(123) المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها، الجزء 2. والمرجعين السابقين.

وكما يوضح الشكل السابق، فإن الوعي السنني هو العامل الرئيس في تحسين وشحذ الفعاليـة التسخيرية والحضارية للمجتمع والأمة، وإن الفعاليـة التسـخيريـة والحضاريـة المتمخضتـين عنـه، تؤديـان بدورهمـا إلى تطويـر الوعي السننـي وتحسينه وتعميقـه بعد ذلك. وهكـذا تتكامل وتطرد شروط أصالـة وفعالية الحركة الاستخلافية في الأرض بشكل مستمر.

دور النخبة الرسالية في توطين ومأسسة الوعي السنني

وبناء على هذه الحقيقة الجوهرية، تتأكد لدينا مدى الحاجة الماسة إلى تطويـر الدراسات السننية ومأسستها من ناحية، كما يتأكد لدينا من ناحية أخرى الدور المحوري أو المفصلي الحيوي للصفوة الرسالية في ذلك. وهو ما نبهنا عليه في المعضلة الأولى في هذه الرسالة، عندما تحدثنا عن تجديد ثقافة النخبة أو الصفوة.

لأن هـذه الثقافـة السننيـة المتكاملة، وهـذه المؤسسـات الثقافية والاجتماعية الرسالية النوعية.. التي يرتبط بها معاً النهوض الحضاري للأمة، وتتعمق به أصالتها وفعاليتها واطراديتها، وتُحمى به منجزاتها ومكاسبهـا، وتُستثمَـر في دعم جهـود الدعوة والبنـاء والمواجهة، هي مسؤولية النخبة الرسالية في المجتمع والأمة بالدرجة الأولى. وهو ما يستلـزم تعميق وتأصيل وتجديد تأهيلهـا الرسالي باستمرار، وتعزيز صفوفهـا بالمزيد مـن الأجيال القياديـة الرسالية كل يـوم، وتمكينها مـن التموقع والحضـور الفعـال في كل المفاصل والمضـغ الحيوية في المجتمعـات الإسلاميـة والعالميـة، حتى يتيسر لهـا المزيد من شروط الاقتـدار القيـادي والتمكـين للخيرية في الأرض. تمامـا كما تم ذلك في العمـل النبوي العظيم، الذي منح للأمة والإنسانية جيل الصحابة العظام الفريد في التاريخ، الذي به تغيرت مسارات ومصائر كثيرة في التاريخ الإنساني، وتبدلت بفضله كثير من حقائق الجغرافيا والتاريخ والحضارة على وجه الأرض.

فالأمة والإنسانية الآن في حاجة ماسة إلى جيل جديد من الصحابة؛ في وعيه العقدي، وفي نضجه الروحي، وفي قوة إرادته، وفي تكامله السلوكي، وفي تآلفه الاجتماعي.. تتأسس على كاهله النهضة الحضارية العبادية العالمية الإنسانية الكونية الثانية، على أساس التعارف والتكامل الحضاري بين البشر، وتبادل المنافع فيما بينهم، والتمايز والامتياز بالصلاح والتقوى والإصلاح، وليس بالأعراق والألوان والاستكبار والطغيان الجهول.. كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: 13).

أهمية النخبة في مجال الهداية الروحية •

وبالرغم من أن حركة الاستخلاف البشري في الأرض لا تنهض بمستلزماتها واحتياجاتها وتحدياتها الشاملة فئة أو نخبة معينة في المجتمع والأمة، وإنما تنهض بها تكاملية جهود كل النخب الرسالية فيهما، فإن ذلك لا يمنعنا من الحديث عن الدور المحوري لنخب وقيادات الهداية الروحية أو الشرعية عامة كما فعل القرآن ذلك في حديثه عن دور هذه النخبة.

فنظرا لأهمية ومركزية الدين في الحياة، فقد نبه القرآن إلى ضرورة العناية القصوى بالصفوة الرسالية التي تتكفل بالتضلع في علوم ومناهج الهداية الروحية والشرعية، التي تمكنها من ممارسة دورها المحوري في تأصيل حركة الاستخلاف البشري ابتداء، ووقايتها من أية انحرافات تمس غائيتها وثوابتها الروحية والأخلاقية

• انظر كتابنا: «مقدمة في الوعي الاستخلافي الأعلى».

والاجتماعية، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (التوبة: 122).

وفي حديث نبوي يعد قانونا تاريخيا عاما في فقه الاستخلاف البشري، جاء فيه: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) [124]. فمع أن التجديد، كما أكدنا ذلك سابقا، عملية تغييرية وإصلاحية كلية تكاملية، تمس جوانب الحياة المختلفة، وتتجزها أطراف كثيرة في المجتمع والأمة، إلا أن الحديث أكد هنا على تجديد الوعي المعرفي والسلوكي والاجتماعي بالدين خاصة؛ لأن الدين كما أوضحنا سابقا، هو الذي يمنح حركة التجديد محتواها وذاتيتها الروحية، وهويتها الإنسانية، وأصالتها وفعاليتها واطراديتها الحضارية النموذجية.

فالدين بمضمونه الرباني الشمولي التكاملي الحقيقي، كما يتجلى في الرسالة الإسلامية الخاتمة، هو وحده القادر على حفظ هوية الإنسان من التجزؤ والتنافر والمسخ، وتوجيه حركته الفكرية والاجتماعية والحضارية في اتجاه تحقيق وظيفته الاستخلافية في الأرض، وتحقيق إنسانية الإنسان، وسيادته المتوازنة على الأرض.

لذلك فإن تجديد وعي الأفراد والجماعات والمجتمع والأمة بالإسلام في ربانيته وشموليته وواقعيته وتكامليته وتوازنيته وعالميته وإنسانيته وكونيته، هو المدخل المركزي لأي تجديد فكري أو اجتماعي أو حضاري حقيقي، يتحرك في مسار العبودية والخيرية والعالمية

(124) الألباني في صحيح أبي داود برقم 4291.

والإنسانيـة والكونية. وأي مدخل آخر للتجديد غير هذا المدخل فإنه لن يتحرك بالضـرورة في اتجاه هذا المسار الاستخلافي الطبيعي، بل ثبت في تاريخ البشرية الطويل أنه غالبا ما يتحرك في اتجاه التجزيئية والتنافرية والاستكبار الحضاري، كما نبه على ذلك القرآن الكريم في مواطن عدة منه، ومنها قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ (النحل: 36).

ومـن هنـا، فـإن الرؤية القرآنيـة لحركة الاستخـلاف في الأرض؛ إذ تؤكـد الحاجـة التكامليـة لكل معـارف الخلافة، ومـن ثم الحاجة التكامليـة للنخـب المبدعة والمطـوِّرة لهذه المعـارف المحركة والمجددة لحركة الاستخلاف في اتجاه العبوديـة والعالمية والإنسانية والكونية، فإنها تؤكد في الوقت نفسه محورية دور علوم وعلماء الهداية الروحية أو الشرعية في حركة الاستخلاف البشري؛ لأن علوم الهداية الروحية والشرعية تهتم بثوابـت الأبعاد الغائية والأخلاقية والوظيفية الكلية، التي تمنح حركة الاستخلاف توازنهـا وانسجامها وتكامليتها، وتقيها مـن أخطـار التجزيئية التنافريـة بين مـادة وروح، وفردية وجماعية، وعقـل ونقـل، وحريـة وجبرية، ودينيـة ودنيوية.. إلى مـا هنالك من الثنائيات الحديـة المتنافرة، التي تنهك حركـة الاستخلاف البشري، وتحرمها من النفاذ إلى عمق الروحانية الاجتماعية التي تمثل حقيقة هذا الاستخلاف وجوهره.

فالنخبـة الرساليـة المتضلعـة في علـوم ومناهج الهدايـة الروحية والشرعيـة، مسؤولة مباشرة عن روحية وأخلاقيـة وإنسانية وعالمية

وكونيـة الحـراك الاستخـلاية في الأرض، من خلال الـدور المعرية والتربـوي والاجتماعي والنقدي والاستشرافي والوقائي، الذي تنهض بـه في المجتمع والأمة والعالم من جهـة، والقدوة السلوكية النموذجية التي تقدمها للناس من جهة أخرى.

ومن أجل تلافي إحساس هذه النخبة بالمحورية المرضية، التي تتجاوز نطاق اختصاصها وساحات فاعليتها الفكرية والتربوية والاجتماعية، جـاءت توجيهات منهجيـة كثيرة، تركز جهدها في مجـالات فاعليتها الأساسيـة، نذكـر منها على سبيـل المثال هذا الحديـث ذا الدلالات المنهجية والتربوية العميقة:

فقـد روى مسلـم في صحيحه أنه لما قدم نبـي الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وجد بعض أهلها يأبّرون النخل. يقولون يلقحون النخل. فقال: «ما تصنعون؟». قالوا: كنا نصنعه. قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا» فتركوه. فنفضت أو فنقصت. قال فذكروا ذلك له فقال: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشـيء من رأي. فإنما أنا بشر» [125].

وها هنا قواعد وأصول وقيم أساسية في المنهج، تتمثل بالخصوص في ضـرورة احترام مجـال الاختصاص، وعدم تجـاوز سلطة الخبرة النوعية الأعلى، ومراجعة الاجتهادات المفضولة، ناهيك عن الخاطئة، والتمييـز بين ثوابت الديـن ومتغيراته في عملية استصحاب مرجعيته في تلبية حاجات التغيير والإصلاح والتجديد ومواجهة تحدياتها.

والنخبـة العلمائيـة الرسالية المختصة في مجـال الوعي بمنظومة سـنن الهداية، هـي أولى نخب المجتمـع والأمة التي يجـب عليها أن تحرصـ علـى تمثّل هذه القواعد والأصول والقيـم في أدائها الفكري

---

(125) مسلم برقم 6362.

والتربـوي والاجتماعي، وأن لا تتدخل في مجـالات اختصاص أخرى لهـا مراجعهـا المتحكمة فيهـا، دون أن يعني هذا طبعـا فصل الدين عـن الحيـاة أو الدولة تحديدا، الـذي تنادي به العلمانيـة المستوردة، وإنما يعني فقط احترام سلطة الاختصاص، ومنحه مداه في الاجتهاد الإبداعـي والتنفيذي معا، في إطار تكامليـة المعارف والاختصاصات والأدوار والوظائـف، على صعيد الحـراك الاجتماعي الكلي، خاصة وأن النخب المرجعية المختلفة في المجتمع والأمة يُفترض فيها أن تكون مستجمعـة للحـد الأدنى من ثقافة الإسلام أو مـا يعرف بالمعلوم من الديـن بالضرورة، الذي يسمـح لها بتوجيه اجتهاداتهـا الإبداعية أو التنفيذية في مجال سنن الآفاق وسنن الأنفس معا، لخدمة استراتيجية العبوديـة والخيرية والعالمية والإنسانية والكونيـة التي تتأسس عليها رسالة المجتمع والأمة في العالم.

وعندمـا تُستوعبُ جيدا هذه الأصـول والقواعد والقيم في المنهج، مـن قبل كل النخب الفاعلة في الحراك الاجتماعي والحضاري الكلي للمجتمع والأمة، ويحـترم كل منها مجال اختصاصه وميدان فاعليته الفكريـة والاجتماعيـة، ويسلّـم بسلطـة الخبرة النوعيـة الأعلى؛ في تحديـد الأولويـات، وحسم الخلافـات، واتخاذ المواقـف والقرارات، وإدارة شؤون حركة التربية والالتزام والدعوة والبناء والمواجهة..

عندمـا يتم كل ذلك، فإن كل فرد من أفراد هذه النخب، وكل دائرة أو قطـاع مـن قطاعاتها المختلفـة، سيدرك مدى حاجتـه الملحة إلى بقيـة الخبرات النوعية العالية الأخرى، ويأخذ منها ما يغذي الحركة التجديديـة الإبداعية في مجال اختصاصه وميدان فاعليته، وبالتالي تتسارع وتيرة الإبداعية الفكرية والفعالية الاجتماعية الكلية للمجتمع والأمة.

وهذه الفعاليـة في الإبداعية الفكرية والاجتماعية الكلية للمجتمع والأمة والإنسانية عامة، تمنح الدين المزيد من شروط حضوره وتألق

سلطانه في حياة الناس، ومن ثم ترسيخ سلطة المرجعيات الروحية والفكرية والتربوية القائمة عليه، باعتبارها مرجعيات ترابط في عمق مصب حركة الاستخلاف، ويتصل دورها ومهمتها بالهوية الروحية والأخلاقية والإنسانية لهذا الاستخلاف مباشرة، كما نبه على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: 53). أي أنه كلما تعمقت ونضجت الخبرة البشرية بسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وبسننه سبحانه في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، عبر تكامل فعالية الحركة الاجتهادية الإبداعية النوعية العالية، كلما أدرك الناس مدى حاجتهم إلى هدايات الإسلام التي ترتقي بهم إلى آفاق العبودية العالمية والإنسانية والكونية، فيعيشون التوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والتكامل الكوني، كنتيجة لمنطق الإحسان الذي انفتحت عليه حياتهم وارتقى إليه أداؤهم الاجتماعي والحضاري.

وما نخلص إليه من كل ما سبق، هو تأكيد أن الوعي بأبعاد المنهج النبوي؛ في الفهم والالتزام والدعوة والبناء والمواجهة، يشكل منطلق وشرط الاستفادة، ليس من الثروة السننية الكبيرة في السنة والسيرة النبوية فقط، بل ومن الثروة السننية الهائلة في القرآن الكريم قبل ذلك وبعده، باعتبار القرآن جاء مؤسسا للوعي بثوابت وكليات سنن الاستخلاف البشري في الأرض من ناحية، وداعيا إلى استكشاف بقية المنظومات والمفردات السننية الجزئية التي تخضع لها الصيرورات الاجتماعية والحضارية لحركة الاستخلاف البشري من ناحية أخرى.

وأي ذهـول أو غفلـة عـن المنهج وثوابته وأخلاقياتـه، وانزلاق نحو التعاطي مع الفروعية التجزيئية بمعزل عن المنهج وضوابطه، سيؤدي لا محالة إلى التورط في متاهات المنهجية الاستثمارية الآلية التنافرية، التي تتعامل مع المعطيات المعرفية الجزئية الهائلة للقرآن والسنة على أساس جاهزيتهـا الذاتية للاستثمار التربـوي والاجتماعي مباشرة، دون حاجـة إلى إعادة تجهيزها وتهيئتهـا للاستثمار، مع أن معطيات المنهـج النبـوي العامـة تؤكد الحاجـة الدائمة إلى التجهيـز المنهجي الوظيفـي أو التسخيري لهذه المعطيات؛ لاستثمارها في تلبية حاجات حركـة الابتلاء والتدافع والتـداول والتجديد الاجتماعي والحضاري، ومواجهة تحدياتها المتلاحقة.

ومعنى هذا أن التعاطي الوظيفي أو التسخيري مع معطيات القرآن والسنـة وعموم الخـبرات البشرية المتاحة، ينبغـي أن يكون محكوما بمعطيـات «المنهجيـة الاستثماريـة المقاصديـة المنضبطـة»، وليس بـ «المنهجيـة الاستثماريـة الآلية التنافريـة»، كما نبه علـى ذلك الإمام الشاطبي في أحد استنتاجاته المنهجية الرائعة: «ومن هنا يعلم أنه ليس كل مـا يعلم مما هو حق يطلـب نشره وإن كان من علم الشريعة ومما يفيد علما بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص» [126].

وأضـاف في موضـع آخر، منبها على معـالم أساسية من معطيات المنهـج النبـوي: «وضابطه أنك تعرضـ مسألتك علـى الشريعة، فإن صحـت في ميزانهـا، فانظر في مآلها إلى حـال الزمان وأهله، فإن لم يـؤد ذكرهـا إلى مفسدة، فاعرضها في ذلك علـى العقول، فإن قبلتها فلـك أن تتكلـم فيها؛ إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العمـوم، وإمـا على الخصوصـ إن كانت غير لائقـة بالعموم، وإن لم يكـن لمسألتك هـذا المساغ فالسكوت عنها هـو الجاري وفق المصلحة الشرعية والعقلية» [127].

---

(126) الموافقات، 137/4 (ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002).
(127) نفسه، 138/5.

وقد وفقنـي الله تعالى لشرح هاتين المقولتين المنهجيتين الرائعتين في كتـاب مستقل أصدرته في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، بعنـوان: «التغيـير الإسلامـي خصائصـه وضوابطـه»، وأوردت فيه تطبيقـات عملية ضافية من السنة والسيرة النبوية، ومن خبرات أهل العلم ورجال الفكر والدعوة والإصلاح عبر العصور.



الفصل الثالث

نص فقهي في منهج الفهم والاستثمار الموضوعي للسنة النبوية

وأود أن أختم هذه الرسالة بإثبات نص فقهي هام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، نستبين منه مدى حيوية وضرورة الوعي بالمنهج في تحقيق الفهم الصحيح للسنة ابتداء، ثم استثمارها في تحقيق أفضل مستويات التأسي الذاتي والأداء الاجتماعي بعد ذلك.

وقبل إثبات هذا النص الأصولي الفقهي المقاصدي المنهجي التحليلي المتين، لا بد أن أبدي بعض الملاحظات الهامة، فأقول بإنني كلما قرأت لابن تيمية وغيره من فحول التجديد الإسلامي عبر التاريخ، وتأملت واقع الساحة الدعوية، أصاب بالاغتمام والحسرة، من سوء الاستثمار لتراث هذا المجدد والمصلح الكبير، الذي غطى عليه كثيرا المدخل التجزيئي أو الفقهي الفروعي، الذي لم يُفهم بدوره في إطار ضوابط المدخل الأصولي السنني الذي كان من أبرز سمات تراث ابن تيمية، فهو رجل منهج بالدرجة الأولى، وعبقريته وتميزه وتأثيره وحيوية فكره، تكمن في المنهج وليس في الفروعية الفقهية المنبثقة عن ذلك المنهج، فقوة المنهج هي التي منحت فقهه قوته وأصالته وفعاليته، ولولا أصالة المنهج لما كان لتعاطيه الفقهي مع الواقع أية ميزة؛ لأنه سيندرج في إطار المنقولات المتوارثة، ولكن المنهج أعطى لفقهه الفروعي حيويته الفكرية وفعاليته الاجتماعية.

إن الصحوة، وهي تتلمذ على تراث هؤلاء المجددين الكبار، وتستوحيه وتستدعيه إلى الواقع المعاصر، في حاجة ماسة إلى تحرير هذا التراث من بعض المؤثرات السلبية للمدخل الفقهي الفروعي، الذي من طبيعته ومهمته ملاحقة جزئيات الحياة واستيعاب تفاصيلها الظرفية المختلفة، فهو أكثر التصاقا بالزمان والمكان والحال، والانتباه أكثر إلى أهمية المدخل الأصولي المعرفي، الذي من طبيعته ومهمته البحث عن القواعد والسنن الكلية العامة في الفكر والمنهج، بل

والالتفات أكثر إلى أهمية المدخل الاجتماعي السنني، الذي من مهمته استقراء السنن العامة التي تحكم عملية التغيير والإصلاح والتجديد الاجتماعي والحضاري، لأن ذلك هو الذي سيفيدنا كثيرا في الاستفادة من تراث هؤلاء المجددين الكبار، الذين كان عطاؤهم الفقهي المتميز نتيجة طبيعية سلسة لتحكمهم في المنهج وانضباطهم به؛ في فهم الإسلام، وفي تعاطيهم مع واقعهم الثقافي والاجتماعي والسياسي والحضاري.

وقد ذكر ابن تيمية في مواطن كثيرة من كتبه، بأن المدخل الأصولي المعرفي كان دائما هو شغله الشاغل، فقال على سبيل المثال: (هذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلى الأصول) [128]. وقد ذهلت اتجاهات فكرية وحركية عديدة في حركة النهضة الإسلامية المعاصرة، تستند على تراث ابن تيمية وغيره من أعلام المدرسة الأصولية أو المقاصدية السننية التكاملية، عن هذه الأبعاد في تراث الرجل والمدرسة عامة، فأغرقت فكره الأصولي المنهجي السنني المنضبط في فروعية إجرائية معزولة عن ضوابطها المنهجية، وثوابتها الأصولية، فبدا تراث الرجل وكأنه مجموعة من الفتاوى الجزئية المتناثرة، والمناظرات الجدالية ذات الشحنات الاجتماعية التنافرية الحادة، مع أن ذلك كله كان محكوما بثوابت المنهج وضوابطه التي تمنحه الفاعلية الاجتماعية الزمنية، فإذا ذُهِل عن ذلك في استصحاب تراثه وإعادة استثماره، فقد فاعليته الاجتماعية الإيجابية، وتحول إلى فاعلية اجتماعية تنافرية منهكة!.

وأستعجل هنا بذكر نموذج من التأصيل المنهجي للمسائل عنده رحمة الله عليه. فعندما تعرض على سبيل المثال لقضية الخروج على السلطة الزمنية، وهي من أعقد المعضلات في تاريخنا السياسي،

---

(128) الفتاوى الكبرى، 16/1.

أصّل للموضوع ابتداء، حيث تعرض على سبيل المثال للقواعد التالية قائلا: «وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع، وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له؛ فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقلّ أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعا أو يتركوهما جميعا، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر إن كان المعروف أكثر أمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات، وإن كان المنكر أغلب نهى عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرا بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله، وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما.

فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي حيث كان المعروف والمنكر متلازمين، وذلك في الأمور المعينة الواقعة» (129).

---

(129) مجموع الفتاوى، 28/ 60.

وكل ما وُجد في فتاويه وفي فقه الفروع عنده، كان محكوما بهذه القواعد الكلية وصادرا عنها. فعندما نأتي نحن لنستثمر فتاواه وفقه الفروع عنده بمعزل عن أصول المنهج وقواعده، نكون مخطئين في حقه أولا، ثم في حق الدين ثانيا، ثم في حق المجتمع ثالثا، لأننا لم نكن أوفياء للتطبيق الموضوعي للمنهج.

فابن تيمية في مقدمة من يدرك ارتباط تنزيل أو تطبيق الأحكام الشرعية على الوقائع العينية، بقواعد المقاصد، والمآلات، والمصالح، واختلاف حاجات الأفراد والجماعات والمجتمعات من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، وتغير الأحكام الشرعية الاجتهادية المبنية على الأعراف والمصالح المرسلة، بتغير الزمان والمكان والحال [130]، فكيف يمكن أن نقتلع بعض آرائه عامة وفتاويه خاصة، من رحم بيئتها الفكرية والاجتماعية والسياسية التاريخية، ونستصحبها إلى بيئتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية المعاصرة، دون مراجعة نقدية تقويمية أولا، وبلا عملية تكييفية جادة ثانيا، تجعلها أكثر انسجاما مع حاجاتنا، واستجابة للتحديات التي نواجهها؟

فنقل الأفكار من بيئة واستنباتها في بيئة أخرى مغايرة، عملية ليست هينة، بل هي من التعقيد والدقة بمكان، قد تكون أشبه شيء بالعملية الجراحية الدقيقة. يقول ابن القيم: «وعلى هذا أبدا تجيء الفتاوى في طول الأيام، فمهما تجدد في العرف فاعتبره، ومهما سقط فألغِه، ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك، وسله عن عرف بلده فأجره عليه وأفته به دون عرف بلدك، والمذكور في كتبك. قالوا فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين.

(130) ابن القيم، إعلام الموقعين، 41/3.

وهذا محض الفقه ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم، وأحوالهم وقرائن أحوالهم، فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم، بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم، والله المستعان» (131).

ونفس الفكرة أصلها القرافي من قبل، عندما نبه على أن «إجراء الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع، وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد؛ يتغير الحكم فيه عند تغير العادة المتجددة» ويضيف أمرا آخر في غاية الأهمية بل والروعة الفكرية والمنهجية، فيلاحظ أنه «لا يشترط تغير العادة، بل لو خرجنا نحن من ذلك البلد إلى بلد آخر، عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كنا فيه، أفتيناهم بعادة بلدهم، ولم نعتبر عادة البلد الذي كنا فيه. وكذلك إذا قدم علينا أحد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه، لم نفته إلا بعادة بلده دون عادة بلدنا» (132).

أين هذا الفقه المنهجي السنني العميق مما يقوم به بعض نقلة الاجتهادات من بطون الحقب التاريخية، ويحاولون زرعها في بيئات مغايرة، دون أدنى مراعاة لمثل هذه القواعد المنهجية التي أصَّلها العلماء الراسخون، وفي مقدمتهم ابن تيمية كما سنرى في هذه الملاحق التي انتقيناها من بعض كتبه.

وهذه الآن عينة من التنظير الأصولي المنهجي السنني عنده (133)، تبين لنا النظرة الشمولية المتكاملة لمفاهيم السنة والبدعة والاقتداء..

---

(131) نفسه، 3/ 78.

(132) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ص 218 (تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ط2، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، 1995).

(133) مجموع الفتاوى، 13/ 156.

وكيـف ترتقي الأمور عنـده إلى مستواها المنهجـي الأصولي السنني العام، الذي لا ينحبس في صور ونماذج التطبيقات الجزئية، التي غالبا مـا تُذكر على سبيـل التمثيل والاستشهاد لتأصيـل القواعد، وتعميق الوعي بسنن الله في الفهم والاقتداء والدعوة والبناء والمواجهة •.

في تنوع العبادات بتنوع أحوال الناس وحاجاتهم

« .. ومن عظّم مطلق السهر والجوع وأمر بهما مطلقا فهو مخطئ، بـل المحمود السهر الشرعي والجـوع الشرعي؛ فالسهر الشرعي كما تقـدم من صلاة أو ذكـر، أو قراءة كتاب علم أن نظر فيه، أو درسه أو غـير ذلك من العبادات. والأفضـل يتنوع بتنوع الناس؛ فبعض العلماء يقـول كتابة الحديـث أفضل من صلاة النافلة، وبعضـ الشيوخ يقول ركعتـان أصليهمـا بالليـل حيث لا يـراني أحد أفضل مـن كتابة مائة حديـث، وآخر من الأئمة يقول بـل الأفضل فعل هذا وهذا، والأفضل يتنـوع بتنـوع أحوال الناسـ. فمن الأعمال ما يكـون جنسه أفضل ثم يكون تارة مرجوحا أو منهيا عنه.

تفاوت فضل العبادات

كالصــلاة، فإنها أفضل من قراءة القرآن، وقراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، ثم الصلاة في أوقات النهي، كما بعد الفجر ووقت الخطبة منهي عنها، والاشتغال حينئذ إما بقراءة أو ذكر أو دعاء أو استماع أفضل من ذلك.

• أنبه على أنني عمدت أحيانا إلى حذف بعض الفقرات الاستطرادية في النص، تجنبا للتطويل، وتكييفا للموضوع مع طبيعة الرسالة وأهدافها الفكرية والتربوية. كما أنبه أيضا على أن جل العناوين هي من وضعي، وقد ارتأيت وضعها لتسهيل قراءة واستيعاب المحتوى، واجتهدت حتى تكون هذه العناوين مطابقة تماما لمحتوى الفقرات ومعبرة بدقة عن مضمونها الفكري والتربوي.

وكذلك قراءة القرآن أفضل من الذكر، ثم الذكر في الركوع والسجود هو المشروع دون قراءة القرآن، وكذلك الدعاء في آخر الصلاة هو المشروع دون القراءة والذكر، وقد يكون الشخص يصلح دينه على العمل المفضول دون الأفضل، فيكون أفضل في حقه، كما أن الحج في حق النساء أفضل من الجهاد.

ومن الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة، ومنهم من يكون الذكر أنفع له من القراءة، ومنهم من يكون اجتهاده في الدعاء لكمال ضرورته أفضل له من ذكر هو فيه غافل، والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له وتارة هذا أفضل له، ومعرفة حال كل شخص وبيان الأفضل له لا يمكن ذكره في كتاب، بل لا بد من هداية يهدي الله بها عبده إلى ما هو أصلح وما صدق الله عبد إلا صنع له. وفي الصحيح أن النبي كان إذا قام من الليل يقول: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) (134).

في تنوع الاستمتاع بالمآكل والملابس

تنوع استمتاعه عليه الصلاة والسلام بالطيبات

وأما الأكل واللباس فخير الهدي هدي محمد، وكان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه، ولا يرد موجودا، ولا يتكلف مفقودا فكان إن حضر خبز ولحم أكله، وإن حضر فاكهة وخبز ولحم أكله، وإن حضر تمر وحده أو خبز وحده أكله، وإن حضر حلو أو عسل طعمه أيضا. وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد، وكان يأكل القثاء بالرطب، فلم يكن إذا حضر لونان من الطعام يقول لا آكل لونين ولا يمتنع من طعام لما فيه من اللذة والحلاوة.

(134) مسلم برقم 770.

وكان أحيانا يمضي الشهران والثلاثة لا يوقد في بيته نار، ولا يأكلون إلا التمر والماء، وأحيانا يربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان لا يعيب طعاما فإن اشتهاه أكله وإلا تركه، وأكل على مائدته لحم ضب فامتنع من أكله وقال: (إنه ليس بحرام، ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه) [135].

تنوع لبسه عليه الصلاة والسلام

وكذلك اللباس كان يلبس القميص والعمامة، ويلبس الإزار والرداء، ويلبس الجبة والفروج، وكان يلبس من القطن والصوف وغير ذلك. لبس في السفر جبة صوف وكان يلبس مما يجلب من اليمن وغيرها، وغالب ذلك مصنوع من القطن. وكانوا يلبسون من قباطي مصر وهي منسوجة من الكتان.

فسنته في ذلك تقتضي أن يلبس الرجل ويطعم مما يسره الله ببلده من الطعام واللباس وهذا يتنوع بتنوع الأمصار.

وسطية المنهج النبوي في التمتع بالطيبات

النموذج التطبيقي الأول

وقد كان اجتمع طائفة من أصحابه على الامتناع من أكل اللحم ونحوه، وعلى الامتناع من تزوج النساء فأنزل الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (المائدة: 87، 88).

(135) البخاري برقم 5400.

وفي الصحيحين عنه أنه بلغه أن رجالا قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر، وقال الثاني: أما أنا فأقوم لا أنام، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الرابع: أما أنا فلا آكل اللحم! فقال: (لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني) (136). وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ (البقرة: 172). فأمر بكل الطيبات والشكر لله، فمن حرم الطيبات كان معتديا، ومن لم يشكر كان مفرطا مضيعا لحق الله. وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها) (137). وفي الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) (138).

خطر الانحراف عن المنهج النبوي

في الاستمتاع بالطيبات

فهذه الطريق التي كان عليها رسول الله هي أعدل الطرق وأقومها، والانحراف عنها إلى وجهين:

(136) البخاري برقم 5063.
(137) مسلم برقم 2734.
(138) الترمذي برقم 2486.

خطر الاتجاه نحو هدر الطيبات

قوم يسرفون في تناول الشهوات مع إعراضهم عن القيام بالواجبات، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:31). وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: 59).

خطر الاتجاه نحو الزهد في الطيبات

وقوم يحرمون الطيبات ويبتدعون رهبانية لم يشرعها الله تعالى، ولا رهبانية في الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: 87). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون: 51). وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: 51). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: 172) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له) [139]. وكل حلال طيب، وكل طيب حلال، فإن الله أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث، لكن جهة طيبه، كونه نافعا لذيذا.

---

(139) الترمذي برقم 2989.

والله حرم علينا كل ما يضرنا وأباح لنا كل ما ينفعنا بخلاف أهل الكتاب فإنه بظلم منهم حرم عليهم طيبات أحلت لهم فحرم عليهم طيبات عقوبة لهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يحرم علينا شيئا من الطيبات، والناس تتنوع أحوالهم في الطعام واللباس والجوع والشبع، والشخص الواحد يتنوع حاله ولكن خير الأعمال ما كان لله أطوع ولصاحبه أنفع، وقد يكون ذلك أيسر العملين وقد يكون أشدهما، فليس كل شديد فاضلا ولا كل يسير مفضولا، بل الشرع إذا أمرنا بأمر شديد فإنما يأمر به لما فيه من المنفعة، لا لمجرد تعذيب النفس، كالجهاد الذي قال فيه تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: 216).

والحج هو الجهاد الصغير ولهذا قال النبي لعائشة رضي الله عنها في العمرة: (أجرك على قدر نصبك)[140] وقال تعالى في الجهاد: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (التوبة: 120).

(140) البخاري برقم 1787.

وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة فليس هذا مشروعا لنا بل أمرنا الله بما ينفعنا ونهانا عما يضرنا وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) [141]. وقال لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا) [142]. قال: (إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فاستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا) [143]. وروى عنه أنه قال: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) [144] .

العبرة بالجهد المزكي للنفس والمطور للفعالية الاجتماعية

فالإنسان إذا أصابه في الجهاد أو الحج أو غير ذلك حر أو برد أو جوع ونحو ذلك، فهو مما يحمد عليه قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ (التوبة: 81).

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: (الكفارات إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط) [145].

وأما مجرد بروز الإنسان للحر والبرد بلا منفعة شرعية، واحتفاؤه وكشف رأسه ونحو ذلك مما يظن بعض الناس أنه من مجاهدة النفس، فهذا إذا لم يكن فيه منفعة للإنسان وطاعة لله فلا خير فيه، بل قد

---

(141) الترمذي برقم 147.
(142) ابن ماجة برقم 3391.
(143) البخاري برقم 39.
(144) البخاري، كتاب الإيمان، (1/ 93).
(145) مسلم برقم 251.

ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائما في الشمس فقال: (ما هذا؟ قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال: مروه فيجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه) [146].

ولهذا نهى عن الصمت الدائم، بل المشروع ما قاله النبي قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) [147]. فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والسكوت عن الشر خير من التكلم به.

فصل في تحري الاتباع المقاصدي للسنة

والأفضل للإمام أن يتحرى صلاة رسول الله التي كان يصليها بأصحابه، بل هذا هو المشروع الذي يأمر به الأئمة، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال لمالك بن الحويرث وصاحبه: (إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقيما ويؤمكما أحدكما، وصلوا كما رأيتموني أصلي) [148].

وقد ثبت في الصحيح أنه كان يقرأ في الفجر بما بين الستين آية إلى مائة آية، وهذا بالتقريب نحو ثلث جزء إلى نصف جزء من تجزئة ثلاثين، فكان يقرأ بطوال المفصل؛ يقرأ بقاف، ويقرأ ألم تنزيل، وتبارك، ويقرأ سورة المؤمنين، ويقرأ الصافات ونحو ذلك. وكان يقرأ في الظهر بأقل من ذلك بنحو ثلاثين آية، ويقرأ في العصر بأقل من ذلك، ويقرأ في المغرب بأقل من ذلك؛ مثل قصار المفصل، وفي العشاء الآخرة بنحو: والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، ونحوهما.

وكان أحيانا يطيل الصلاة ويقرأ بأكثر من ذلك، حتى يقرأ في المغرب بالأعراف، ويقرأ فيها بالطور ويقرأ فيها بالمرسلات. وأبو

(146) البخاري برقم 6704.
(147) البخاري برقم 6018.
(148) البخاري برقم 630.

بكـر الصديـق قرأ مرة في الفجـر بسورة البقرة، وعمـر كان يقرأ في الفجر بسورة هود وسورة يوسف ونحوهما، وأحيانا يخفف إما لكونه في السفر أو لغير ذلك، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إني لأدخل في الصـلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأخفف لما أعلم من وجد أمه به) [149]، حتى روى أنه قرأ في الفجر سورة التكوير وسورة الزلزلة، فينبغي للإمام أن يتحرى الاقتداء برسول الله.

وإذا كان المأمومـون لم يعتادوا لصلاته وربمـا نفروا عنها، درجهم إليهـا شيئا بعد شـيء، فلا يبدؤهم بما ينفرهم عنهـا بل يتبع السنة بحسـب الإمكان، وليس للإمـام أن يطيل على القـدر المشروع إلا أن يختاروا ذلك كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال صلى الله عليه وسلم: (من أمَّ الناس فليخفف بهم، فإن منهم السقيم والكبير وذا الحاجة) [150] أخرجـاه في الصحيحـين وقال: (إذا أمَّ أحدكـم الناس فليخفف، وإذا صلـى لنفسـه فليطول ما شـاء) [151]. وكان يطيـل الركوع والسجود والاعتدالـين، كمـا ثبت عنه في الصحيـح أنه كان إذا رفـع رأسه من الركـوع يقوم حتى يقـول القائل قد نسي، وإذا رفع رأسه من السجود يقعد حتى يقول القائل قد نسي.

وفي السنن أن أنس بن مالك شبه صلاة عمر بن عبدالعزيز بصلاته، وكان عمـر يسبـح في الركوع نحو عشر تسبيحـات وفي السجود نحو عشر تسبيحات، فينبغي للإمام أن يفعل في الغالب مثل ما كان صلى الله عليه وسلم يفعله في الغالب، وإذا اقتضت المصلحة أن يطيل أكثر فعل ذلك.

---

(149) ابن ماجة برقم 989.
(150) الترمذي برقم 236.
(151) الترمذي برقم 236.

فصل في منهج الاتباع والتأسي

الإقرار بمبدأ الطاعة ابتداء

وأما سؤال السائل عن المواظبة على ما واظب عليه النبي في عبادته وعادته، هل هي سنة أم تختلف باختلاف أحوال الراتبين؟ فيقال الذي نحن مأمورون به هو طاعة الله ورسوله، فعلينا أن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمرنا به، فإن الله قد ذكر طاعته في أكثر من ثلاثين موضعا من كتابه فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: 80) وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: 64).

وقد أوجب السعادة لمن أطاعه بقوله

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (النساء: 69) وعلق السعادة والشقاوة بطاعته ومعصيته في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ (النساء: 13، 14).

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته

(من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا) (152). وجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وتقواه وخشيته وإلى طاعتهم كما قال نوح عليه السلام: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ (نوح: 3) وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (النور: 52). وقال كل من نوح والنبيين: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (الشعراء: 108).

الاقتداء بالأمر أولى من الاقتداء بالفعل

وطاعة الرسول فيما أمرنا به هو الأصل الذي على كل مسلم أن يعتمده، وهو سبب السعادة، كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة. وطاعته في أمره أولى بنا من موافقته في فعل لم يأمرنا بموافقته فيه، باتفاق المسلمين، ولم يتنازع العلماء أن أمره أوكد من فعله. فإن فعله قد يكون مختصا به وقد يكون مستحبا. وأما أمره لنا فهو من دين الله الذي أمرنا به، ومن أفعاله ما قد علم أنه أمرنا أن نفعل مثله كقوله: (صلوا كما رأيتموني أصلي) (153). وقوله لما صلى بهم على المنبر: (إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي) (154). وقوله لما حج: (خذوا عني مناسككم) (155).

فيما فعله على وجه العادة والخصوصية

وأيضا فقد ثبت بالكتاب والسنة أن ما فعله على وجه العادة فهو مباح لنا إلا أن يقوم دليل على اختصاصه به، كما قال سبحانه وتعالى:

(154) البخاري برقم 917.
(155) مسلم برقم 1297.
(152) أبو داود برقم 1097.
(153) البخاري برقم 630.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ (الأحزاب: 37). فأباح له أن يتزوج امرأة دعيه ليرفع الحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم، فعلم أن ما فعله كان لنا مباحا أن نفعله.

ولما خصه ببعض الأحكام قال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: 50). فلما أحل له أن ينكح الموهوبة بيّن أن ذلك خالص له من دون المؤمنين فليس لأحد أن ينكح امرأة بلا مهر غيره.

وفي صحيح مسلم: (أن رجلا سأل رسول الله أيقبّل الصائم؟ فقال له: سل هذه، لأم سلمة، فأخبرتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك، فقال يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له: أما والله إنني لأتقاكم لله وأخشاكم له) [156].

فلما أجابه صلى الله عليه وسلم بفعله، دل ذلك على أنه يباح للأمة ما أبيح له. ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن الله إذا أمره بأمر أو نهاه عن شيء كانت أمته أسوة له في ذلك، ما لم يقم دليل على اختصاصه بذلك.

(156) مسلم برقم 1108.

ما هو موضع تأسٍ منها وما هو دون ذلك

فمن خصائصه ما كان من خصائص نبوته ورسالته، فهذا ليس لأحد أن يقتدي به فيه، فإنه لا نبي بعده. وهذا مثل كونه يطاع في كل ما يأمر به وينهى عنه، وإن لم يعلم جهة أمره، حتى يقتل كل من أمر بقتله، وليس هذا لأحد بعده، فولاة الأمور من العلماء والأمراء يطاعون إذا لم يأمروا بخلاف أمره، ولهذا جعل الله طاعتهم في ضمن طاعته. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (النساء: 59). فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ (النساء: 59). لأن أولي الأمر يطاعون طاعة تابعة لطاعته فلا يطاعون استقلالا، ولا طاعة مطلقة. وأما الرسول فيطاع طاعة مطلقة مستقلة فإنه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ (النساء: 80). فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (النساء: 59). فإذا أمرنا الرسول كان علينا أن نطيعه وإن لم نعلم جهة أمره، وطاعته طاعة لله، لا تكون طاعته بمعصية الله قط بخلاف غيره.

نماذج تطبيقية من خصائصه

وقد ذكر الناس من خصائصه فيما يجب عليه ويحرم عليه ويكرم به، ما ليس هذا موضع تفصيله، وبعض ذلك متفق عليه وبعضه متنازع فيه. وقد كان صلى الله عليه وسلم إمام الأمة وهو الذي يقضي بينهم، وهو الذي يقسم، وهو الذي يغزو بهم، وهو الذي يقيم الحدود وهو الذي يستوفي الحقوق، وهو الذي يصلي بهم. فالاقتداء به في كل مرتبة بحسب تلك المرتبة. فإمام الصلاة والحج يقتدى به

في ذلـك، وأمير الغزو يقتـدى به في ذلك، والذي يقيم الحدود يقتدى به في ذلك، والذي يقضي أو يفتي يقتدى به في ذلك.

وقـد تنازع النـاسـ في أمور فعلها هل هي مـن خصائصه أم للأمة فعلهـا؟ كدخوله في الصـلاة إماما بعد أن صلى بالناس غيره، وكتركه الصـلاة على الغال والقاتل. وأيضـا فإذا فعل فعلا لسبب وقد علمنا ذلك السبب أمكننا أن نقتدي به فيه، فأما إذا لم نعلم السبب، أو كان السبب أمرا اتفاقيا، فهذا مما يتنازع فيه الناس؛ مثل نزوله في مكان في سفـره. فمن العلماء من يستحـب أن ينزل حيث نزل، كما كان ابن عمر يفعل. وهؤلاء يقولون نفس موافقته في الفعل هو حسن وإن كان فعله هو اتفاقا، ونحن فعلناه لقصد التشبه به. ومن العلماء من يقول إنما تستحب المتابعة إذا فعلناها على الوجه الذي فعله، فأما إذا فعله اتفاقا لم يشرع لنا أن نقصد ما لم يقصده؛ ولهذا كان أكثر المهاجرين والأنصار لا يفعلون كما كان ابن عمر يفعل. وأيضا فالاقتداء به يكون تارة في نوع الفعل، وتارة في جنسه، فإنه قد يفعل الفعل لمعنى يعم ذلك النوع وغيره، لا لمعنى يخصه، فيكون المشروع هو الأمر العام.

نموذج تطبيقي أول عن التأسي المقاصدي

مقـال ذلك احتجامه صلى الله عليـه وسلم، فإن ذلك كان لحاجته إلى إخـراج الدم الفاسد، ثم التأسي هل هو مخصوص بالحجامة، أو المقصود إخراج الدم على الوجه النافع؟ ومعلوم أن التأسي هو المشروع، فـإذا كان البلـد حارا يخرج فيه الـدم إلى الجلد، كانت الحجامة هي المصلحة، وإن كان البلد باردا يغور فيه الدم إلى العروق، كان إخراجه بالفصد هو المصلحة.

نموذج تطبيقي ثان عن التأسي المقاصدي

وكذلـك ادهانه هـل المقصود خصوص الدهـن أو المقصود ترجيل الشعر؟ فـإن كان البلد رطبا وأهله يغتسلون بالماء الحار الذي يغنيهم عن الدهن والدهن يؤذي شعورهم وجلودهم، يكون المشروع في حقهم ترجيل الشعر بما هو أصلح لهم، ومعلوم أن الثاني هو الأشبه.

نموذج تطبيقي ثالث عن التأسي المقاصدي

وكذلـك لما كان يـأكل الرطب والتمر وخبـز الشعير ونحو ذلك من قوت بلده، فهل التأسي به أن يقصد خصوص الرطب والتمر والشعير، حتـى يفعـل ذلك مـن يكون في بـلاد لا ينبت فيها التمـر ولا يقتاتون الشعـير، بل يقتاتون الـبر أو الأرز أو غير ذلك؟ ومعلوم أن الثاني هو المشـروع. والدليل على ذلك أن الصحابة لـما فتحوا الأمصار كان كل منهـم يـأكل من قوت بلده، ويلبس من لباس بلـده، من غير أن يقصد أقـوات المدينـة ولباسها، ولـو كان هذا الثاني هـو الأفضل في حقهم لكانوا أولى باختيار الأفضل.

نموذج تطبيقي رابع عن التأسي المقاصدي

وعلـى هذا يبنـى نزاع العلمـاء في صدقة الفطـر إذا لم يكن أهل البلد يقتاتون التمر والشعير، فهل يخرجون من قوتهم كالبر والأرز أو يخرجون من التمر والشعير لأن النبي فرض ذلك؟ فإن في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: (فرض رسول الله صدقة الفطر صاعا من تمر أو صاعـا مـن شعير على كل صغير أو كبير ذكر أو أنثى، حر أو عبد، مـن المسلمين) [157]. وهـذه المسألة فيها قولان للعلماء، وهما روايتان عـن أحمـد، وأكـثر العلماء على أنـه يخرج من قوت بلـده، وهذا هو

---

(157) البخاري برقم 1503.

الصحيح، كما ذكر الله ذلك في الكفارة بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (المائدة: 89).

نموذج تطبيقي خامس عن التأسي المقاصدي

ومن هذا الباب أن الغالب عليه وعلى أصحابه أنهم كانوا يأتزرون ويرتدون، فهل الأفضل لكل أحد أن يرتدي ويأتزر ولو مع القميص أو الأفضل أن يلبس مع القميص السراويل من غير حاجة إلى الإزار والرداء؟ هذا أيضا مما تنازع فيه العلماء، والثاني أظهر وهذا باب واسع.

وهذا النوع ليس مخصوصا بفعله وفعل أصحابه، بل وبكثير مما أمرهم به ونهاهم عنه، وهذا سمته طائفة من الناس: «تنقيح المناط» وهو أن يكون الحكم قد ثبت في عين معينة وليس مخصوصا بها، بل الحكم ثابت فيها وفي غيرها فيحتاج أن يعرف «مناط الحكم».

نموذج تطبيقي سادس عن التأسي المقاصدي

مثال ذلك أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن فأرة وقعت في سمن فقال: (ألقوها وما حولها وكلوا سمنكم) [158]. فإنه متفق على أن الحكم ليس مختصا بتلك الفأرة وذلك السمن، بل الحكم ثابت فيما هو أعم منهما، فبقي المناط الذي علق به الحكم ما هو؟ فطائفة من أهل العلم يزعمون أن الحكم مختص بفأرة وقعت في سمن فينجسون ما كان كذلك مطلقا، ولا ينجسون السمن إذا وقع فيه الكلب والبول والعذرة، ولا ينجسون الزيت ونحوه إذا وقعت فيه الفأرة، وهذا القول خطأ قطعا.

---

(158) البخاري برقم 5538.

وليس هذا مبنيا على كون القياس حجة، فإن القياس الذي يكون النزاع فيه هو تخريج المناط، وهو أن يجوز اختصاص مورد النص بالحكم، فإذا جاز اختصاصه، وجاز أن يكون الحكم مشتركا بين مورد النص وغيره، احتاج معتبر القياس إلى أن يعلم أن المشترك بين الأصل والفرع هو مناط الحكم، كما في قوله: (لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل، ولا تبيعوا الفضة بالفضة إلا مثلا بمثل، ولا تبيعوا الشعير بالشعير إلا مثلا بمثل، ولا تبيعوا الملح بالملح إلا مثلا بمثل) [159] فلما نهى عن التفاضل في مثل هذه الأصناف، أمكن أن يكون النهي لمعنى مشترك ولمعنى مختص.

نموذج تطبيقي سابع عن التأسي المقاصدي

ولما سئل عن فأرة وقعت في سمن، فأجاب عن تلك القضية المعينة، ولا خفاء أن الحكم ليس مختصا بها، وكذلك سائر قضايا الأعيان؛ كالأعرابي الذي قال له إني وقعت على أهلي في رمضان، فأمره أن يعتق رقبة أو يصوم شهرين متتابعين، أو يطعم ستين مسكينا، فإن الحكم ليس مخصوصا بذلك الأعرابي باتفاق المسلمين. لكن هل أمره بذلك لكونه أفطر أو جامع في رمضان أو أفطر فيه بالجماع أو أفطر بالجنس الأعلى، هذا مما تنازع فيه العلماء.

نموذج تطبيقي ثامن عن التأسي المقاصدي

وكذلك لما سأله سائل عمن أحرم بالعمرة وعليه جبة وهو متضمخ بالخلوق فقال: (انزع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق، واصنع في عمرتك ما كنت صانعا في حجتك) [160]. فهل أمره بغسل الخلوق لكونه طيبا حتى يأمر المحرم بغسل كل طيب كان عليه، أو لكونه خلوقا لرجل؟ وقد نهى أن يتزعفر الرجل فينهى عن الخلوق للرجل سواء كان محرما أو غير محرم.

---

(159) مسلم برقم 1240.

(160) البخاري برقم 1536.

وكذلك لما عتقت بريرة فخيرها فاختارت نفسها، عند من يقول إن زوجها كان عبدا، فإن المسلمين اتفقوا على أن الحكم لا يختص بها. لكن هل التخيير لكونها عتقت تحت عبد فكلمت تحت ناقص ولا تخير إذا عتقت تحت الحر أو الحكم لكونها ملكت نفسها فتخير سواء كان الزوج حرا أو عبدا؟ هذا مما تنازعوا فيه. وهذا الباب واسع وهو متناول لكل حكم تعلق بعين معينة مع العلم بأنه لا يختص بها فيحتاج أن يعرف المناط الذي يتعلق به الحكم، وهذا النوع يسميه بعض الناس قياسا وبعضهم لا يسميه قياسا، ولهذا كان أبو حنيفة وأصحابه يستعملونه في المواضع التي لا يستعملون فيها القياس.

في معرفة المناطات الشرعية وفقه الاجتهاد

والصواب أن هذا ليس من القياس الذي يمكن فيه النزاع، كما أن تحقيق المناط ليس مما يقبل النزاع باتفاق العلماء.

وهذه الأنواع الثلاثة: «تحقيق المناط» و«تنقيح المناط» و«تخريج المناط» هي جماع الاجتهاد.

فالأول: أن يعمل بالنص والإجماع، فإن الحكم معلق بوصف يحتاج في الحكم على المعين إلى أن يعلم ثبوت ذلك الوصف فيه كما يعلم أن الله أمرنا بإشهاد ذوي عدل منا وممن نرضى من الشهداء، ولكن لا يمكن تعيين كل شاهد فيحتاج أن يعلم في الشهود المعينين هل هم من ذوي العدل المرضيين أم لا؟ وكما أمر الله بعشرة الزوجين بالمعروف وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (للنساء رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[161] ولم يمكن تعيين كل زوج فيحتاج أن ينظر في الأعيان، ثم من الفقهاء

(161) أبو داود برقم 2144.

مـن يقول إن نفقة الزوجة مقدرة بالشرع والصواب ما عليه الجمهور أن ذلـك مـردود إلى العرف كما قال لهند: (خـذي ما يكفيك وولدك بالمعروف) [162] وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسـراء: 34) ويبقـى النظـر في تسليمـه إلى هـذا التاجر بجزء من الربح هل هو من التي هي أحسن أم لا وكذلك قوله: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) (التوبة: 60) يبقى هذا الشخص المعـين هل هو من الفقـراء المساكين المذكورين في القـرآن أم لا وكما حـرم الله الخمر والربا عموما يبقى الكلام في الشراب المعين هل هو خمـر أم لا، وهـذا النـوع مما اتفق عليه المسلمون بـل العقلاء بأنه لا يمكـن أن ينصـ الشارع على حكم كل شخص إنمـا يتكلم بكلام عام، وكان نبينا قد أوتي جوامع الكلم.

وأما النوع الثاني: الذي يسمونه «تنقيح المناط» بأن ينص على حكم أعيان معينة، لكن قد علمنا أن الحكم لا يختص بها فالصواب في مثل هذا أنه ليس من باب القياس لاتفاقهم على النص بل المعين هنا نص علـى نوعه ولكنه يحتاج إلى أن يعرف نوعه، ومسألة الفأر في السمن من هذا الباب، فإن الحكم ليس مخصوصا بتلك الفأرة وذلك السمن ولا بفـأرة المدينة وسمنهـا، ولكن السائل سأل النبـي صلى الله عليه وسلـم عن فـأرة وقعت في سمن، فأجابه، لا أن الجواب يختص به ولا بسؤالـه كما أجـاب غيره، ولفظ الفأرة والسمن ليست من كلام النبي حتـى يكون هو الذي علق الحكم بها بل مـن كلام السائل الذي أخبر بمـا وقع لـه كما قال له الأعرابي: إنه وقع علـى امرأته ولو وقع على سريته لكان الأمر كذلك، وكما قال له الآخر رأيت بياض خلخالها في القمر، فوثبت عليها، ولو وطئها بدون ذلك كان الحكم كذلك.

---

(162) النسائي برقم 5420.

فالصواب في هذا ما عليه الأئمة المشهورون أن الحكم في ذلك معلق بالخبيث الذي حرمه الله، إذا وقع في السمن ونحوه من المائعات؛ لأن الله أباح لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث، فإذا علقنا الحكم بهذا المعنى كنا قد اتبعنا كتاب الله، فإذا وقع الخبيث في الطيب ألقي الخبيث وما حوله وأكل الطيب كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم.

وليس هذا الجواب موضع بسط مثل هذه المسائل، ولكن نبهنا على هذا لأن الاقتداء بالنبي في أفعاله يتعلق بهذا وحينئذ هذا مما يتعلق باجتهاد الناس واستدلالهم وما يؤتيهم الله من الفقه والحكمة والعلم، وأحق الناس بالحق من علق الأحكام بالمعاني التي علقها بها الشارع.

وهذا موضع تفاوت فيه الناس وتنازعوا: هل يستفاد ذلك من خطاب الشارع أو من المعاني القياسية؟ فقوم زعموا أن أكثر أحكام أفعال العباد لا يتناولها خطاب الشارع بل تحتاج إلى القياس، وقوم زعموا أن جميع أحكامها ثابتة بالنص وأسرفوا في تعلقهم بالظاهر، حتى أنكروا فحوى الخطاب وتنبيهه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ (الإسراء: 23) وقالوا: إن هذا لا يدل إلا على النهي عن التأفيف، لا يفهم منه النهي عن الضرب والشتم، وأنكروا «تنقيح المناط» وادعوا في الألفاظ من الظهور ما لا تدل عليه، وقوم يقدمون القياس تارة لكون دلالة النص غير تامة أو لكونه خبر الواحد، وأقوام يعارضون بين النص والقياس ويقدمون النص ويتناقضون، ونحن قد بينا في غير هذا الموضع أن الأدلة الصحيحة لا تتناقض، فلا تتناقض الأدلة الصحيحة العقلية والشرعية ولا تتناقض دلالة القياس إذا كانت صحيحة، ودلالة الخطاب إذا كانت صحيحة.

فإن القياس الصحيح حقيقة التسوية بين المتماثلين، وهذا هو العدل الذي أنزل الله به الكتب، وأرسل به الرسل، والرسول لا يأمر

بخلاف العدل، ولا يحكم في شيئين متماثلين بحكمين مختلفين، ولا يحرم الشيء ويحل نظيره.

وقد تأملنا عامة المواضع التي قيل إن القياس فيها عارض النص وإن حكم النص فيها على خلاف القياس، فوجدنا ما خصه الشارع بحكم عن نظائره، فإنما خصه به لاختصاصه بوصف أوجب اختصاصه بالحكم، كما خص العرايا بجواز بيعها بمثلها خرصا، لتعذر الكيل مع الحاجة إلى البيع، والحاجة توجب الانتقال إلى البدل عند تعذر الأصل.

فالخرص عند الحاجة قام مقام الكيل كما يقوم التراب مقام الماء، والميتة مقام المذكى عند الحاجة، وكذلك قول من قال: القرض أو الإجارة أو القراض أو المساقاة أو المزارعة ونحو ذلك على خلاف القياس، إن أراد به أن هذه الأفعال اختصت بصفات أوجبت أن يكون حكمها مخالفا لحكم ما ليس مثلها، فقد صدق. وهذا هو مقتضى القياس، وإن أراد أن الفعلين المتماثلين حكم فيهما بحكمين مختلفين فهذا خطأ ينزه عنه من هو دون الأنبياء صلوات الله عليهم.

ولكن هذه الأقيسة المعارضة هي الفاسدة كقياس الذين قالوا:

﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ ﴾ (البقرة: 275)
وقياس الذين قالوا: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟» يعنون الميتة، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (الأنعام: 121).

ولعل من رزقه الله فهما، وآتاه من لدنه علما، يجد عامة الأحكام التي تعلم بقياس شرعي صحيح يدل عليها الخطاب الشرعي، كما أن غاية ما يدل عليه الخطاب الشرعي هو موافق للعدل الذي هو مطلوب القياس الصحيح.

وإذا كان الأمر كذلك: فالكلام في أعيان أحوال الرجل السالك يحتاج إلى نظر خاص واستهداء من الله والله قد أمر العبد أن يقول في كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ (الفاتحة: 6، 7). فعلى العبد أن يجتهد في تحقيق هذا الدعاء ليصير من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

فصل في العبادات التي جاءت على وجوه متنوعة

قد تقدم القول في مواضع أن العبادات التي فعلها النبي صلى الله عليه وسلم على أنواع يشرع فعلها على جميع تلك الأنواع، لا يكره منها شيء، وذلك مثل أنواع التشهدات، وأنواع الاستفتاح، ومثل الوتر أول الليل وآخره، ومثل الجهر بالقراءة في قيام الليل والمخافتة، وأنواع القراءات التي أنزل القرآن عليها، والتكبير في العيد، ومثل الترجيع في الأذان وتركه، ومثل إفراد الإقامة وتثنيتها.

وقد بسطنا في جواب مسائل الزرعية وغيرها أن ما اختلف فيه العلماء وأراد الإنسان أن يحتاط فيه فهو نوعان:

أحدهما: ما اتفقوا فيه على جواز الأمرين ولكن تنازعوا أيهما أفضل.

والثاني: ما تنازعوا فيه في جواز أحدهما وكثير مما تنازعوا فيه قد جاءت السنة فيه بالأمرين، مثل الحج. قيل: لا يجوز فسخ الحج إلى العمرة؛ بل قيل: ولا تجوز المتعة، وقيل بل ذلك واجب، والصحيح أن كليهما جائز، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الصحابة في حجة الوداع بالفسخ، وقد كان خيرهم بين الثلاثة، وقد حج الخلفاء

بعده ولم يفسخوا. كما بسط في موضعه، وكذلك الصوم في السفر قيل: لا يجوز، بل يجب الفطر والصحيح الذي عليه الجمهور جواز الأمرين.

ثم قال كثير منهم إن الصوم أفضل، والصحيح أن الفطر أفضل إلا لمصلحة راجحة، وما قال أحد إنه لا يجوز الفطر، كما يظنه بعض الجهال، وهذا مبسوط في مواضع.

والمقصود هنا: أن ما جاءت به السنة على وجوه كالأذان والإقامة وصلاة الخوف، والاستفتاح، فالكلام فيه من مقامين:

أحدهما: في جواز تلك الوجوه كلها بلا كراهة، وهذا هو الصواب، وهو مذهب أحمد وغيره في هذا كله. ومن العلماء من قد يكره، أو يحرم بعض تلك الوجوه؛ لظنه أن السنة لم تأت به، أو أنه منسوخ. كما كرهت طائفة الترجيع في الأذان وقالوا: إنما قاله لأبي محذورة تلقينا للإسلام لا تعليما للأذان، والصواب أنه جعله من الأذان وهذا هو الذي فهمه أبو محذورة، وقد عمل بذلك هو وولده، والمسلمون يقرونهم على ذلك بمكة وغيرها.

وكرهت طائفة الأذان بلا ترجيع، وهو غلط أيضا، فإن أذان بلال الثابت ليس فيه ترجيع، وكرهت طائفة ترجيعها، وكرهت طائفة صلاة الخوف إلا على حديث ابن عمر، وكره آخرون ما أمر به هؤلاء.

والصواب في هذا كله أن كل ما جاءت به السنة فلا كراهة لشيء منه؛ بل هو جائز وهذا مبسوط في مواضع.

والمقصود هنا هو: المقام الثاني، وهو أن ما فعله النبي من أنواع متنوعة، وإن قيل: إن بعض تلك الأنواع أفضل، فالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أن يفعل هذا تارة وهذا تارة، أفضل من لزوم أحد

الأمرين، وهجر الآخر، وهذا مثل الاستفتاح: ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال: (أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد) [163] ولم يخرج البخاري في الاستفتاح شيئا إلا هذا وهو أقوى الحجج على الاستفتاح في المكتوبة، فإنه صريح في ذلك بقوله: أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة؟ وهذا سؤال عن السكوت، لا عن القول سرا، ويشهد له حديث سمرة، وحديث أبي بن كعب، أنه كان له سكتتان.

وأيضا فللناس في الصلاة أقوال:

أحدها: أنه لا سكوت فيها كقول مالك، ولا يستحب عنده استفتاح، ولا استعاذة، ولا سكوت لقراءة الإمام.

والثاني: أنه ليس فيها إلا سكوت واحد للاستفتاح، كقول أبي حنيفة، لأن هذا الحديث يدل على هذه السكتة.

والثالث: أن فيها سكتتين، كما في حديث السنن. لكن روى فيه أنه يسكت إذا فرغ من القراءة، وهو الصحيح. وروى إذا فرغ من الفاتحة، فقال طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد: يستحب ثلاث سكتات.

وسكتة الفاتحة جعلها أصحاب الشافعي وطائفة من أصحاب أحمد ليقرأ المأموم الفاتحة. والصحيح أنه لا يستحب إلا سكتتان، فليس في الحديث إلا ذلك، وإحدى الروايتين غلط، وإلا كانت ثلاثا، وهذا هو المنصوص عن أحمد، وأنه لا يستحب إلا سكتتان، والثانية عند الفراغ من القراءة للاستراحة، والفصل بينهما وبين الركوع.

---

(163) البخاري برقم 711.

وأما السكوت عقيب الفاتحة فلا يستحبه أحمد، كما لا يستحبه مالك وأبو حنيفة، والجمهور لا يستحبون أن يسكت الإمام ليقرأ المأموم؛ وذلك أن قراءة المأموم عندهم إذا جهر الإمام ليست بواجبة، ولا مستحبة بل هي منهي عنها. وهل تبطل الصلاة إذا قرأ مع الإمام؟ فيه وجهان في مذهب أحمد، فهو إذا كان يسمع قراءة الإمام فاستماعه أفضل من قراءته، كاستماعه لما زاد على الفاتحة، فيحصل له مقصود القراءة، والاستماع بدل على قراءته، فجمعه بين الاستماع والقراءة جمع بدل بين البدل والمبدل، ولهذا لم يستحب أحمد وجمهور أصحابه قراءته في سكتات الإمام إلا إن سكت سكوتا بليغا يتسع للاستفتاح والقراءة.

وأما إن ضاق عنهما فقوله وقول أكثر أصحابه إن الاستفتاح أولى من القراءة، بل هو في إحدى الروايتين يأمر بالاستفتاح مع جهر الإمام، فإذا كان الإمام ممن يسكت عقيب الفاتحة سكوتا يتسع للقراءة فالقراءة فيه أفضل من عدم القراءة، لكن هل يقال القراءة فيه بالفاتحة أفضل للاختلاف في وجوبها، أو بغيرها من القرآن، لكونه قد استمعها؟ هذا فيه نزاع. ومقتضى نصوص أحمد وأكثر أصحابه أن القراءة بغيرها أفضل، فإنه لا يستحب أن يقرأ بها مع استماعه قراءتها وعامة السلف الذين كرهوا القراءة خلف الإمام هو فيما إذا جهر، ولم يكن أكثر الأئمة يسكت عقب الفاتحة سكوتا طويلا. وكان الذي يقرأ حال الجهر قليلا. وهذا منهي عنه بالكتاب والسنة، وعلى النهي عنه جمهور السلف والخلف، وفي بطلان الصلاة وبذلك نزاع.

ومن العلماء من يقول: يقرأ حال جهره بالفاتحة، وإن لم يقرأ بها ففي بطلان صلاته أيضا نزاع، فالنزاع من الطرفين؛ لكن الذين ينهون عن القراءة مع الإمام هم جمهور السلف والخلف، ومعهم الكتاب والسنة الصحيحة، والذين أوجبوها على المأموم في حال الجهر

هكذا. حديثهم قد ضعفه الأئمة، ورواه أبو داود، وقوله في حديث أبي موسى: «وإذا قرأ فأنصتوا»[164] صححه أحمد وإسحاق ومسلم بن الحجاج وغيرهم، وعلله البخاري بأنه اختلف فيه، وليس ذلك بقادح في صحته، بخلاف ذلك الحديث، فإنه لم يخرج في الصحيح وضعفه ثابت من وجوه. وإنما هو قول عبادة بن الصامت؛ بل يفعل في سكوته ما يشرع من الاستفتاح والاستعاذة، ولو لم يسكت الإمام سكوتا يتسع لذلك، أو لم يدرك سكوته، فهل يستفتح ويستعيذ مع جهر الإمام؟ فيه ثلاث روايات:

إحداها: يستفتح ويستعيذ مع جهر الإمام وإن لم يقرأ؛ لأن مقصود القراءة حصل بالاستماع، وهو لا يسمع استفتاحه واستعاذته، إذ كان الإمام يفعل ذلك سرا.

والثانية: يستفتح ولا يستعيذ؛ لأن الاستعاذة تراد للقراءة، وهو لا يقرأ، وأما الاستفتاح فهو تابع لتكبيرة الافتتاح.

والثالثة: لا يستفتح ولا يستعيذ، وهو أصح، وهو قول أكثر العلماء، كمالك والشافعي، لأنه مأمور بالإنصات والاستماع، فلا يتكلم بغير ذلك. ولأنه ممنوع من القراءة، فكذا يمنع من ذلك. وكثير من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم يقول منعه أولى، لأن القراءة واجبة، وقد سقطت بالاستماع، لكن مذهب أحمد ليس منعه القراءة أوكد، فإن القراءة عنده لا تجب على المأموم لا سرا ولا جهرا، وإن اختلف في وجوبها على المأموم، فقد اختلف في وجوب الاستفتاح والاستعاذة. وفي مذهبه في ذلك قولان مشهوران.

ومن حجة من يأمر بهما عند الجهر: أنهما واجبان لم يجعل عنهما بدل؛ بخلاف القراءة فإنه جعل منها بدل وهو الاستماع، لكن

---

(164) مسلم برقم 404.

الصحيح أن ذلك ليس بواجب، والاستعاذة إنما أمر بها من يقرأ، والأمر باستماع قراءة الإمام والإنصات له مذكور في القرآن، وفي السنة الصحيحة، وهو إجماع الأمة فيما زاد على الفاتحة، وهو قول جماهير السلف من الصحابة وغيرهم في الفاتحة وغيرها، وهو أحد قولي الشافعي، واختاره طائفة من حذاق أصحابه: كالرازي، وأبي محمد عبد السلام، فإن القراءة مع جهر الإمام منكر مخالف للكتاب والسنة، وما كان عليه عامة الصحابة، ولكن طائفة من أصحاب أحمد استحبوا للمأموم القراءة في سكتات الإمام، ومنهم من استحب أن يقرأ بالفاتحة وإن جهر، وهو اختيار جدي. كما استحب ذلك طائفة، منهم الأوزاعي وغيره، واستحب بعضهم للإمام أن يسكت عقب الفاتحة ليقرأ من خلفه، وأحمد لم يستحب هذا السكوت، فإنه لا يستحب القراءة إذا جهر الإمام. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن سكوت الاستفتاح ثبت بهذا الحديث الصحيح، ومع هذا فعامة العلماء من الصحابة ومن بعدهم يستحبون الاستفتاح بغيره كما يستحب جمهورهم الاستفتاح بقوله: «سبحانك اللهم»(165). وقد بينا سبب ذلك في غير هذا الموضع، وهو أن فضل بعض الذكر على بعض هو لأجل ما اختص به الفاضل، لا لأجل إسناده.

والذكر ثلاثة أنواع: أفضله ما كان ثناء على الله، ثم ما كان إنشاء من العبد، أو اعترافا بما يجب لله عليه، ثم ما كان دعاء من العبد.

فالأول: مثل النصف من الفاتحة، ومثل: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك»(166)، ومثل التسبيح في الركوع والسجود.

---

(165) مسلم برقم 399.

(166) الألباني في صحيح أبي داود برقم 775.

والثـانـي: مثل قوله: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض» ومثـل قوله في الركوع والسجود: «اللهم لك ركعت ولك سجدت» وكما في حديث علي الذي رواه مسلم [167].

والثالـث: مثل قوله: «اللهم باعد بيني وبـين خطاياي» [168] ومثل دعائـه في الركوع والسجود. ولهذا أوجـب طائفة من أصحاب أحمد ما كان ثناء، كما أوجبوا الاستفتاح، وحكي في ذلك عن أحمد روايتان، واختار ابن بطة وغيره وجوب ذلك، وهذا لبسطه موضع آخر.

والمقصـود هنـا: أن النوع المفضـول مثل الاستفتاح الـذي رواه أبو هريـرة، ومثل الاستفتاح بوجهـك، أو سبحانك اللهم، عند من يفضل الآخـر: فعلـه أحيانا أفضل من المداومة على نـوع، وهجر نوع، وذلك أن أفضـل الهـدي هـدي محمد صلـى الله عليه وسلـم. كما ثبت في الصحيـح أنـه كان يقـول في خطبة الجمعة: «خير الـكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم» [169]. ولم يكن يداوم علـى استفتـاح واحد قطعا، فإن حديث أبـي هريرة يدل على أنه كان يستفتح بهذا. فإن قيل: كان يداوم عليه، فكانت المداومة عليه أفضل، قلنا: لم يقل هذا أحد من العلماء فيما علمناه، فعلم أنه لم يكن يداوم عليه.

وأيضـا فقد كان عمـر يجهر: «بسبحانك اللهـم وبحمدك» يعلمها الناس. ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقولها في الفريضة ما فعل ذلك عمـر، وأقره المسلمون، وكما كان بعضهم يجهر بالاستعاذة، وكذلـك قيل في جهـر جماعة منهـم بالبسملة أنـه كان لتعليم الناس قراءتهـا، كما جهر من جهر منهم بالاستعـاذة والاستفتاح، وكما جهر ابـن عباس بقـراءة الفاتحة في صـلاة الجنازة؛ ولهـذا كان الصواب

(167) مسلم برقم 771.
(168) البخاري برقم 744.
(169) مسلم برقم 867.

هـو المنصوص عن أحمد أنـه يستحب الجهر أحيانا بذلك، فيستحب الجهـر بالبسملـة أحيانا، ونص قوم على أنـه كان يجهر بها إذا صلى بالمدينـة، فظـن القاضي أن ذلك لأن أهل المدينـة شيعة يجهرون بها، وينكـرون علـى من لم يجهر بها؛ لأن القاضي لما حج كان قد ظهر بها التشيع، واستولى عليها وعلى أهل مكة العبيديون المصريون، وقطعوا الحج من العراق مدة، وإنما حج القاضي من الشام.

والصواب أن أحمد لم يأمر بالجهر لذلك، بل لأن أهل المدينة على عهـده كانـوا لا يقرءون سـرا ولا جهرا، كما هو مذهـب مالك، فأراد أن يجهـر بها كما جهر بها من جهر مـن الصحابة تعليما للسنة، وأنه يستحـب قراءتها في الجملة، وقد استحب أحمد أيضا لمن صلى بقوم لا يقنتون بالوتر، وأرادوا من الإمام أن لا يقنت لتأليفهم. فقد استحب ترك الأفضل لتأليفهم وهذا يوافق تعليل القاضي فيستحب الجهر بها إذا كان المأمومـون يختارون الجهر لتأليفهـم، ويستحب أيضا إذا كان فيه إظهار السنة، وهم يتعلمون السنة منه ولا ينكرونه عليه.

وهكـذا كلـه يرجـع إلى أصل جامـع: وهو أن المفضـول قد يصير فاضـلا لمصلحة راجحة، وإذا كان المحرم كأكل الميتة قد يصير واجبا للمصلحـة الراجحـة، ودفـع الضرر، فـلأن يصير المفضـول فاضلا لمصلحة راجحة أولى.

وكذلك يقال في أجناس العبادات كالصلاة: جنسها أفضل من جنس القراءة، والذكر. ثم أنها منهي عنها في أوقات النهي، فالقراءة والذكر والدعاء في ذلك الوقت أفضل من الصلاة، وكذلك الدعاء في مشاعر الحـج بعرفة ومزدلفة ومنى والصفا والمـروة أفضل من القراءة أيضا بالنص والإجماع، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إني نهيت أن أقـرأ القرآن راكعا وساجـداً» (170) وهذا هو الصحيح من حديث ابن

---

(170) مسلم برقم 479.

عباس، ومن حديث علي أيضا أنه نهاه عن ذلك، ولو قرأ هل تبطل صلاته؟ فيه وجهان في مذهب أحمد، فالنهي عن الصلاة والقراءة في المشاعر الفضيلة.

فإن الطهارة شرط في الصلاة، ولا يشترط له الطهارة، ولكل مكان عبادة تشرع، وكذلك ترك الصلاة وقت النهي مشروع في كل زمان. وأما الطواف فهل تكره فيه القراءة؟ فيه قولان مشهوران للعلماء، وهما روايتان عن أحمد، والرخصة مذهب الشافعي؛ بل هو مستحب فيه القراءة، ولا يستحب الجهر بها، وللأخرى مصنف.

وإذا كان هذا من أجناس العبادات التي ثبت فضل بعضها على بعض بالنص والإجماع، فكيف في أنواع الذكر، لا سيما فيما فيه نزاع، فالأصل بلا ريب هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت أنه كان يستفتح بهذا الاستفتاح الذي في حديث أبي هريرة، فالأفضل أن يستفتح به أحيانا، ويستفتح بغيره أحيانا.

وأيضا فلكل استفتاح حاجة ليست لغيره، فيأخذ المؤمن بحظه من كل ذكر. وأيضا فقد يحتاج الإنسان إلى المفضول، ولا يكفيه الفاضل. كما في ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: 1) فإنها تعادل ثلث القرآن؛ أي يحصل لصاحبها من الأجر ما يعدل ثواب ثلث القرآن في القدر، لا في الصفة، فإن ما في القرآن من الأمر والنهي والقصص والوعد والوعيد لا يغني عنه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وليس أجرها من جنس أجرها وإن كان جنس أجر ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أفضل، فقد يحتاج إلى المفضول حيث لا يغني الفاضل، كما يحتاج الإنسان إلى رجله حيث لا تغني عنها عينه.

وكذلك المخلوقات لكل مخلوق حكمة خلق لأجلها، فكذلك العبادات فجميع ما شرعه الرسول له حكمة ومقصود ينتفع به مقصوده، فلا

يهمـل ما شرعه من المستحبـات. وإن قيل إن جنس غيره أفضل، فهو في زمانه ومكانه أفضل من غيره، والصلوات التي كان يدعو فيها بهذا الاستفتاح كان دعاؤه فيها بهذا الاستفتاح أفضل من غيره، وهو دعاؤه بالطهـارة والتنقية مـن الذنوب والتبعيد عنها من جنس الاستغفار في السحر. وكاستغفـاره عقب الصلاة، وقد كان يدعو بمثل هذا الدعاء في آخر قيام الاعتدال بعد التحميد، فكان يفتتح به القيام تارة ويختم به القيام أيضا.

وقد روي عنه في الاستفتاح أنواع، وعامتها في قيام الليل، كما ذكر ذلك أحمد، ويستحب للمصلي بالليل أن يستفتح بها كلها وهذا أفضل مـن أن يداوم على نوع ويهجر غـيره، فإن هذا هدي النبي، لكن يقال أيضـا هـدي النبي هو أفضل. ومن الناس من لا يصلح له الأفضل بل يكـون فعله للمفضـول أنفع، كمن ينتفع بالدعاء دون الذكر، أو بالذكر دون القـراءة، أو بالقراءة دون صـلاة التطوع، فالعبادة التي ينتفع بها فيحضـر لها قلبـه ويرغب فيها ويحبها، أفضل مـن عبادة يفعلها مع الغفلـة وعـدم الرغبة، كالغذاء الذي يشتهيـه الإنسان وهو جائع، هو أنفع له من غذاء لا يشتهيه أو يأكله وهو غير جائع.

فكذلـك يقـال هنا: قـد تكون مداومتـه على النوع المفضـول أنفع لمحبتـه وشهود قلبه وفهمه ذلك الذكـر ونحن إذا قلنا التنوع، في هذه الأذكار أفضـل فهـو أيضا تفضيل لجنس التنـوع والمفضول قد يكون أنفع لبعض الناس لمناسبته له كما قد يكون جنسه في الشرع أفضل في بعض الأمكنـة والأزمنة والأحوال، فالمفضول تارة يكون أفضل مطلقا في حـق جميع النـاس كما تقدم، وقد يكون أفضـل لبعض الناس لأن انتفاعه به أتم وهذه حال أكثر الناس قد لا ينتفعون بالفاضل الذي لا يصلون إلى أن يكونوا من أهله.

فصل في منهج استيعاب الاختلافات

قاعدة في صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الأمة في الرواية والرأي؛ مثل الأذان والجهر بالبسملة والقنوت في الفجر والتسليم في الصلاة ورفع الأيدي فيها ووضع الأكف فوق الأكف، ومثل التمتع والإفراد والقران في الحج ونحو ذلك، فإن التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون.

في أسباب الاختلاف

أولا - الجهل بالشريعة: جهل كثير من الناس أو أكثرهم بالأمر المشروع المسنون الذي يحبه الله ورسوله والذي سنه رسول الله لأمته والذي أمرهم باتباعه.

ثانيا - الظلم وقلة الإنصاف: ظلم كثير من الأمة أو أكثرهم بعضهم لبعض، وبغيهم عليهم تارة بنهيهم عما لم ينه الله عنه، وبغضهم على من لم يبغضهم الله عليه، وتارة بترك ما أوجب الله من حقوقهم وصلتهم لعدم موافقتهم له على الوجه الذي يؤثرونه حتى يقدمون في الموالاة والمحبة وإعطاء الأموال والولايات من يكون مؤخرا عند الله ورسوله ويتركون من يكون مقدما عند الله ورسوله لذلك.

ثالثا - اتباع الظنون والأهواء: اتباع الظن وما تهوى الأنفس حتى يصير كثير منهم مدينا باتباع هؤلاء في هذه الأمور المشروعة، وحتى يصير في كثير من المتفقهة والمتعبدة من الأهواء من جنس ما في أهل الأهواء الخارجين عن السنة والجماعة كالخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم وقد قال تعالى في كتابه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص: 26). وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ (المائدة: 77).

رابعـا - التنازع والتفـرق: التفرق والاختـلاف المخالف للاجتماع والائتـلاف، حتي يصـير بعضهم يبغض بعضا ويعاديـه ويحب بعضا ويواليـه وعلى غير ذات الله، وحتى يفضي الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعـن والهمـز واللمـز، وببعضهـم إلى الاقتتال بالأيـدي والسلاح، وببعضهـم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض، وهذا كله من أعظم الأمور التي حرمها الله ورسوله.

والاجتمـاع والائتلاف من أعظم الأمـور التي أوجبها الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. (آل عمـران: 102 - 105) قـال ابن عباس تبيضـ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .

وكثـير من هـؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجـه عن السنة التي شرعها رسول الله لأمته، ومن أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ (الأنعام: 159). وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ (البقرة: 213). وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (البينة: 4، 5). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ (آل عمران: 19).

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ (الجاثية: 17). وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (يونس: 93). وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال: 1). وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: 10). وقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (النساء: 114).

وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرقوا، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة، مثل قوله: (عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة). وقوله: (فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد). وقوله: (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه). وقوله: (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين).

وقوله: (من جاءكم وأمركم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان) [171]. وقوله: (يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم). وقوله: (ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية واثنتان وسبعون في النار). قيل ومن الفرقة الناجية؟ قال: (هي الجماعة، يد الله على الجماعة) [172].

---

(171) مسلم برقم 1852.

(172) الترمذي برقم 2941.

وبـاب الفســاد الذي وقع في هذه الأمة، بـل وفي غيرها هو التفرق والاختـلاف، فإنـه وقع بين أمرائها وعلمائها؛ مـن ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم. وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لاجتهـاده الذي يغفر فيه خطأه، أو لحسناته الماحية، أو توبته أو لغير ذلـك؛ لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة، ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره، وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقديم العمل به هو الإجماع، فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة.

الشك في ثوابت الأمة

النـوع الخامس: هو شك كثير من الناس وطعنهم في كثير مما أهل السنة والجماعة عليه متفقون، بل وفي بعض ما عليه أهل الإسلام بل وبعض ما عليه سائر أهل الملل متفقون، وذلك من جهة نقلهم ورواياتهم تارة، ومن جهة تنازعهم ورأيهم أخرى.

أمـا الأول فقد علم الله الذكر الذي أنزله على رسوله، وأمر أزواج نبيه بذكره حيث يقول: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب: 34) حفظه من أن يقع فيه من التحريف مـا وقع فيما أنزل قبله، كما عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة، فعصم حروف التنزيل أن تغير، وحفظ تأويله أن يضل فيه أهل الهدى المتمسكون بالسنة والجماعة، وحفظ أيضا سنة رسول الله عما ليس فيهـا مـن الكذب عمدا أو خطـأ، بما أقامه من علمـاء أهل الحديث وحفاظـه الذين فحصـوا عنها وعن نقلتها ورواتهـا، وعلموا من ذلك مـا لا يعلم غيرهم، حتى صاروا مجتمعين على ما تلقوه بالقبول منها

إجماعـا معصوما من الخطأ، لأسباب يطول وصفها في هذا الموضع، وعلموا هم خصوصا وسائر علماء الأمة بل وعامتها عموما، ما صانوا بـه الديـن عن أن يـزاد فيه أو ينقص منه مثلما علمـوا أنه لم يفرض عليهـم في اليـوم والليلة إلا الصلـوات الخمسـ، وإن مقادير ركعاتها مـا بين الثنائي والثلاثي والرباعـي، وأنه لم يفرض عليهم من الصوم إلا شهـر رمضـان، ومن الحج إلا حـج البيت العتيق، ومـن الزكاة إلا فرائضها المعروفة، إلى نحو ذلك.

البعد الفكري والتربوي في مواجهة الاختلاف التنافري

إذا تبـين بعضـ ما حصل في هذا الاختـلاف والتفرق من الفساد، فنحن نذكر طريق زوال ذلك، ونذكر ما هو الواجب في الدين في هذه المنازعات؛ وذلك ببيان الأصلين اللذين هما: السنة والجماعة المدلول عليهمـا بكتـاب الله، فإنـه إذا اتبع كتـاب الله وما تضمنـه من اتباع رسولـه والاعتصام بحبله جميعا، حصل الهدى والفلاح وزال الضلال والشقاء.

روح الجماعة: أما الأصل الأول وهو الجماعة، وبدأنا به لأنه أعرف عنـد عموم الخلق ولهذا يجب عليهم تقـديم الإجماع على ما يظنونه من معاني الكتاب والسنة.

مجـال المنازعات: فنقول عامة هـذه التنازعات إنمـا هي في أمور مستحبات ومكروهات، لا في واجبات ومحرمات.

نموذج تطبيقي أول

فإن الرجل إذا حج متمتعا أو مفردا أو قارنا كان حجه مجزءا عند عامـة علمـاء المسلمين، وإن تنازعوا في الأفضل من ذلك، ولكن بعضا من غير الجماعة● يوجب أو يمنع ذلك، فمن الشيعة من يوجب المتعة ويحرم ما عداها، ومن الناصبة من يحرم المتعة ولا يبيحها بحال.

نموذج تطبيقي ثاني

وكذلـك الأذان سواء رجع فيـه أو لم يرجع، فإنه أذان صحيح عند جميـع سلف الأمـة وعامة خلفه، وسواء ربع التكبـير في أوله أو ثناه، وإنما يخالف في ذلك بعض شواذ المتفقهة كما خالف فيه بعض الشيعة فأوجب له الحيعلة «بحي على خير العمل»، وكذلك الإقامة يصح فيها الإفراد والتثنية بأيها أقام صحت إقامته عند عامة علماء الإسلام إلا ما تنازع فيه شذوذ الناس.

نموذج تطبيقي ثالث

وكذلك الجهر بالبسملـة والمخافتة كلاهما جائز لا يبطل الصلاة، وإن كان مـن العلماء من يستحب أحدهما أو يكره الآخر، أو يختار أن لا يقرأ بها فالمنازعة بينهم في المستحب وإلا فالصلاة بأحدهما جائزة عند عوام العلمـاء فإنهم وإن تنازعوا بالجهر والمخافتة في موضعهما هـل همـا واجبان أم لا، وفيـه نزاع معروف في مذهـب مالك وأحمد وغيرهمـا فهذا في الجهر الطويل بالقـدر الكثير مثل المخافتة بقرآن الفجر والجهر بقراءة صلاة الظهر.

فأمـا الجهر بالشيء اليسير أو المخافتة به فمما لا ينبغي لأحد أن يبطل الصلاة بذلك، وما أعلم أحدا قال به، فقد ثبت في الصحيحين

● يقصد هنا ما عرف في التاريخ باسم أهل السنة والجماعة.

عن النبي أنه (كان في صلاة المخافتة يسمعهم الآية أحيانا) [174]، وفي صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: (كنا نصلي وراء النبي فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده. قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه. فلما انصرف قال: من المتكلم؟ قال أنا، قال: رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً) [175].

ومعلوم أنه لولا جهره بها لما سمعه النبي ولا الراوي، ومعلوم أن المستحب للمأموم المخافتة بمثل ذلك، وكذلك ثبت في الصحيح عن عمر أنه كان يجهر بدعاء الاستفتاح: (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك) [176] وهذا فعله بين المهاجرين والأنصار. والسنة الراتبة فيه المخافتة، وكذلك كان من الصحابة من يجهر بالاستعاذة، وفي الصحيح عن ابن عباس أنه جهر بقراءة الفاتحة على الجنازة وقال: لتعلموا أنها السنة ولهذا نظائر.

نموذج تطبيقي رابع

وأيضا فلا نزاع أنه كان من الصحابة من يجهر بالبسملة كابن الزبير ونحوه، ومنهم من لم يكن يجهر بها كابن مسعود وغيره، وتكلم الصحابة في ذلك ولم يبطل أحد منهم صلاة أحد في ذلك، وهذا مما لم أعلم فيه نزاعا وإن تنازعوا في وجوب قراءتها فتلك مسألة أخرى.

نموذج تطبيقي خامس

وكذلك القنوت في الفجر إنما النزاع بينهم في استحبابه أو كراهيته، وسجود السهو لتركه أو فعله، وإلا فعامتهم متفقون على صحة صلاة

---

(174) البخاري برقم 4722.

(175) الألباني في صحيح أبي داود رقم 770.

(176) الألباني في إرواء الغليل برقم 340.

مـن تـرك القنوت وأنه ليس بواجب، وكذلك من فعلـه إذ هو تطويل يسير للاعتدال ودعاء الله في هذا.

نموذج تطبيقي سادس

الأذان، فـإذا كان كل واحـد مـن مؤذني رسول الله قـد أمره النبي بأحـد النوعين صار ذلك مثـل تعليمه القرآن لعمر بحرف ولهشام بن حكيم بحرف آخر، وكلاهما قرآن أذن الله أن يقرأ به.

نموذج تطبيقي سابع

وكذلـك الترجيـع في الأذان هـو ثابت في أذان أبـي محذورة، وهو محـذوف من أذان بلال الذي رووه في السنن. وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتـة بهـا صح الجهر بهـا عن طائفـة من الصحابـة، وصحت المخافتة بها عن أكثرهم، وعن بعضهم الأمران جميعا.

وأما المأثور عن النبي فالذي في الصحاح والسنن يقتضي أنه لم يكن يجهـر بها كمـا عليه عمل أكثر الصحابة وأمته، ففي الصحيح حديث أنس وعائشة وأبي هريرة يدل على ذلك دلالة بينة لا شبهة فيها. وفي السـنن أحاديـث أخر مثل حديث ابن مغفل وغيره، وليس في الصحاح والسـنن حديث فيه ذكر جهره بهـا، والأحاديث المصرحة بالجهر عنه كلهـا ضعيفـة عند أهل العلم بالحديث، ولهـذا لم يخرجوا في أمهات الدواوين منها شيئا، ولكن في الصحاح والسنن أحاديث محتملة.

وقد روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس أن النبي كان يجهر بها إذا كان بمكة، وأنه لما هاجر إلى المدينة ترك الجهر بها حتى مات. ورواه أبـو داود في الناسخ والمنسـوخ وهذا يناسب الواقع، فإن الغالب علـى أهل مكـة كان الجهر بها وأما أهل المدينـة والشام والكوفة فلم يكونـوا يجهرون بها، وكذلك أكثر البصريين، وبعضهم كان يجهر بها،

ولهـذا سألـوا أنسا عن ذلك. ولعل النبي كان يجهر بها بعض الأحيان أو جهرا خفيفا إذا كان ذلك محفوظا، وإذا كان في نفس كتب الحديث أنه فعل هذا مرة، وهذا مرة زالت الشبهة.

نموذج تطبيقي ثامن

وأما القنوت فأمره بيّن لا شبهة فيه عند التأمل التام، فإنه قد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه قنت في الفجر مرة يدعـو على رعل وذكوان وعصيـة) [177] ثم تركه ولم يكن تركه نسخا لـه؛ لأنـه ثبت عنـه في الصحاح أنـه قنت بعد ذلك يدعـو للمسلمين مثـل الوليد بن الوليـد وسلمة بن هشام والمستضعفـين من المؤمنين، ويدعو على مضر، وثبت عنه أنه قنت أيضا في المغرب والعشاء وسائر الصلوات قنوت استنصار.

فهذا في الجملة منقول ثابت عنه، لكن اعتقد بعض العلماء الكوفيين أنه تركه ترك نسخ، فاعتقدوا أن القنوت منسوخ، واعتقد بعضهم من المكيـين أنه مـا زال يقنت في الفجـر القنوت المتنازع فيـه حتى فارق الدنيا، والذي عليه أهل المعرفة بالحديث أنه قنت لسبب وتركه لزوال السبب.

فالقنـوت مـن السنن العوارضـ لا الرواتب، لأنه ثبـت أنه تركه لما زال العارضـ، ثـم عاد إليه مرة أخرى، ثم تركه لما زال العارض. وثبت في الصحـاح أنـه لم يقنت بعد الركوع إلا شهـرا، هكذا ثبت عن أنس وغـيره، ولم ينقـل أحد قط عنه أنه قنت القنـوت المتنازع فيه لا قبل الركوع ولا بعده، وفي كتب الصحاح والسنن شيء من ذلك، بل قد أنكر ذلك الصحابة كابن عمر وأبي مالك الأشجعي وغيرهما.

---

(177) البخاري برقم 4090.

ومن المعلوم قطعا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان كل يوم يقنت قنوتا يجهر به لكان له فيه دعاء ينقله بعض الصحابة، فإنهم نقلوا ما كان يقوله في القنوت العارض، وقنوت الوتر، فالقنوت الراتب أولى أن ينقل دعاؤه فيه، فإذا كان الذي نستحبه إنما يدعو فيه لقنوت الوتر علم أنه ليس فيه شيء عن النبي، وهذا مما يعلم باليقين القطعي، كما يعلم عدم النص على هذا وأمثاله، فإنه من الممتنع أن يكون الصحابة كلهم أهملوا نقل ذلك فإنه مما يعلم بطلانه قطعا.

وكذلك المأثور عن الصحابة مثل عمر وعلي وغيرهما هو القنوت العارض، قنوت النوازل، ودعاء عمر فيه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم عذب كفرة أهل الكتاب) إلخ. يقتضى أنه دعا به عند قتاله للنصاري، وكذلك دعاء علي عند قتاله لبعض أهل القبلة. والحديث الذي فيه عن أنس رضي الله عنه: (أنه لم يزل يقنت حتى فارق الدنيا) مع ضعف في إسناده، وأنه ليس في السنن إنما فيه القنوت قبل الركوع.

وفي الصحاح عن أنس أنه قال: (لم يقنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الركوع إلا شهرا) والقنوت قبل الركوع هو القيام الطويل؛ إذ لفظ القنوت معناه دوام الطاعة، فتارة يكون في السجود، وتارة يكون في القيام، كما قد بيناه في غير هذا الموضع.

نموذج تطبيقي تاسع

وأما حجة الوداع وإن اشتبهت على كثير من الناس، فإنما أتوا من جهة الألفاظ المشتركة، حيث سمعوا بعض الصحابة يقول إنه تمتع بالعمرة إلى الحج، وهؤلاء أيضا يقولون إنه أفرد الحج، ويقول بعضهم إنه قرن العمرة إلى الحج، ولا خلاف في ذلك، فإنهم لم يختلفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحل من إحرامه، وأنه كان قد ساق

الهـدي ونحره يوم النحـر، وأنه لم يعتمر بعد الحجـة في ذلك العام، لا هـو ولا أحـد من أصحابـه، إلا عائشة أمر أخاهـا أن يعمرها من التنعيم أدنى الحل، وكذلك الأحاديث الصحيحة عنه فيها أنه لم يطف بالصفا والمروة إلا مرة واحدة مع طوافه الأول.

فالذيـن نقلـوا أنه أفرد الحج صدقوا؛ لأنـه أفرد أعمال الحج ولم يقرن بها عمل العمرة، كما يتوهم من يقول إن القارن يطوف طوافين ويسعـى سعيين، ولم يتمتع تمتعا حل به من إحرامه كما يفعله المتمتع الـذي لم يسـق الهدي، بل قـد أمر جميع أصحابـه الذين لم يسوقوا الهـدي أن يحلـوا من إحرامهـم ويجعلوها عمرة، ويهلـوا بالحج بعد قضاء عمرتهم [178].

(178) مجموع الفتاوى 22/ 156.

ملحق في التفريق بين

حجية السنة وحجية الاجتهادات الفردية

للصحابة وغيرهم

الاختيارات الاجتهادية للصحابة

ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة في جنس العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات، إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه - وكان ما يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم يخالفه لا يوافقه - لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها، بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول.

نموذج تطبيقي أول

ولهذا نظائر كثيرة؛ مثل ما كان ابن عمر يدخل الماء في عينيه في الوضوء ويأخذ لأذنيه ماءً جديدا.

نموذج تطبيقي ثانٍ

وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى العضدين في الوضوء، ويقول: من استطاع أن يطيل غرته فليفعل، وروى عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول هو موضع الغل، فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعا لهما فقد خالفهم في ذلك آخرون، وقالوا سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤون هكذا.

والوضوء الثابت عنه الذي في الصحيحين وغيرهما من غير وجه، ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين، ولا غسل ما زاد على المرفقين والكعبين، ولا مسح العنق، ولا قال النبي من استطاع أن يطيل غرته

فليفعـل، بل هذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجا في بعض الأحاديث، وإنمـا قـال النبـي: (إنكـم تأتون يـوم القيامة غرا محجلـين من آثار الوضـوء) وكان يتوضـأ حتى يشرع في العضد والساق، قال أبو هريرة مـن استطاع أن يطيـل غرته فليفعل، وظن من ظـن أن غسل العضد مـن إطالـة الغـرة، وهذا لا معنى له، فإن الغـرة في الوجه لا في اليد والرجـل، وإنمـا في اليد والرجل الحجلـة. والغرة لا يمكـن إطالتها، فـإن الوجه يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة في الرأس، والحجلة لا يستحب إطالتها وإطالتها مثلة.

نموذج تطبيقي ثالث

وكذلك ابن عمر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبي صلى الله عليـه وسلم وينزل مواضع منزله، ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ، ويصـب فضل مائه على شجرة صب عليهـا، ونحو ذلك مما استحبه طائفـة من العلماء ورأوه مستحبـا، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء، كمـا لم يستحبه ولم يفعلـه أكابر الصحابة كأبي بكـر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهم، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر، ولو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتداء به.

في مفهوم المتابعة الشرعية: وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل، علـى الوجـه الذي فعل، فإذا فعل فعلا على وجـه العبادة شرع لنا أن نفعلـه على وجه العبـادة، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذاك، كما يقصد أن يطوف حول الكعبة، وأن يستلم الحجر الأسـود، وأن يصلي خلف المقـام، وكأن يتحرى الصلاة عند أسطوانة مسجـد المدينة، وقصد الصعود على الصفا والمـروة والدعاء والذكر هناك، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما.

في المتابعـة البدعيـة: وأمـا ما فعله بحكـم الاتفـاق ولم يقصده؛ مثـل أن ينـزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزلـه لا قصدا لتخصيصه به

بالصلاة والنزول فيه، فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول لم نكن متبعين، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب، كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعروف بن سويد قال: كان عمر بن الخطاب في سفر فصلى الغداة، ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون صلى فيه النبي، فقال عمر: إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبِيعًا، فمن عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض.

فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه، بل صلى فيه لأنه موضع نزوله، رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك، ففاعل ذلك متشبه في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب.

في المتابعة المقاصدية المنضبطة: وهذا هو الأصل، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل، ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة؛ هل فعلها استحبابا أو لحاجة عارضة؟ تنازعوا فيها. وكذلك نزوله بالمحصب عند الخروج من منى، لما اشتبه هل فعله لأنه كان أسمح لخروجه أو لكونه سنة تنازعوا في ذلك.

ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي، وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمرو بن حريث بالكوفة، فإن هذا لما لم يكن مما يفعله سائر الصحابة، ولم يكن النبي شرعه لأمته، لم يمكن أن يقال هذا سنة مستحبة؛ بل غايته أن يقال: هذا مما ساغ فيه اجتهاد الصحابة، أو مما لا ينكر على فاعله، لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد لا لأنه سنة مستحبة سنها النبي لأمته، أو يقال في التعريف إنه لا بأس به أحيانا لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة.

وهكـذا يقـول أئمـة العلم في هـذا وأمثالـه، تارة يكرهونـه، وتارة يسوغـون فيـه الاجتهاد، وتـارة يرخصون فيـه إذا لم يتخذ سنة، ولا يقول عالم بالسنة إن هذه سنة مشروعة للمسلمين.

فـإن ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله، إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشـرع، وما سنه خلفاؤه الراشـدون فإنما سنوه بأمره فهو من سننه، ولا يكون في الدين واجبا إلا ما أوجبه، ولا حراما إلا ما حرمه، ولا مستحبـا إلا مـا استحبه، ولا مكروهـا إلا ما كرهه، ولا مباحا إلا ما أباحه.

وهكـذا في الإباحات، كمـا استباح أبو طلحة أكل البرد وهو صائم، واستبـاح حذيفـة السحـور بعد ظهـور الضوء المنتشـر حتى قيل هو النهـار، إلا أن الشمس لم تطلع وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك، فوجب الرد إلى الكتاب والسنة.

وكذلـك الكراهـة والتحـريم؛ مثل كراهـة عمر وابنـه للطيب قبل الطواف بالبيت، وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج إلى التمتع، أو التمتـع مطلقـا، أو رأى تقديـر مسافة القصر بحد حـده، وأنه لا يقصر بدون ذلك، أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم في السفر.

ومـن ذلك قول سلمان: إن الريق نجس، وقول ابن عمر إن الكتابية لا يجوز نكاحها، وتوريث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن يتيمم، وقول علي وزيد وابن عمر في المفوضة إنـه لا مهر لها إذا مات الزوج، وقول علي وابن عباس في المتوفى عنها الحامـل إنها تعتد أبعد الأجلـين، وقول ابن عمر وغيره إن المحرم إذا مات بطل إحرامه، وفعل به ما يفعل بالحلال.

وقول ابن عمر وغيره لا يجوز الاشتراط في الحج، وقول ابن عباس وغيره في المتوفى عنها ليس عليها لزوم المنزل، وقول عمر وابن مسعود

إن المبتوتة لها السكنى والنفقة، وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة، فإنـه يجب فيه الرد إلى الله والرسـول، ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله.

ومـن قال من العلماء: «إن قـول الصحابي حجة» فإنما قاله إذا لم يخالفـه غيره من الصحابـة ولا عرف نص يخالفه، ثم إذا اشتهر ولم ينكـروه كان إقرارا علـى القول فقد يقال: «هذا إجمـاع إقراري» إذا عرف أنهم أقروه ولم ينكره أحد منهم وهم لا يقرون على باطل.

وأمـا إذا لم يشتهر فهذا إن عـرف أن غيره لم يخالفه، فقد يقال: «هو حجة» وأما إذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم يجزم بأحدهما، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم [179].

كلمة في هدي النبي في اللباس والزينة

ونظـرا لمـا تثيره قضية اللباس أو الـزي الهندامي بصفة عامة من نقاش وجدال حاد في حياة المسلمين، وما تفرزه من سلوكيات اجتماعية متنافرة أحيانا، تتخذ طابع التأسي بالسنة النبوية، فقد رأيت أن أثبت هنـا نصا هاما لابن القيـم في هديه عليه الصلاة والسلام في اللباس والزينـة عامـة، أورده في الجزء الأول من كتابـه القيم: «زاد المعاد في هدي خير العباد»، حيث يتبين لنا من حديثه مدى انسجام هديه عليه السـلام مـع سنن الله في الاستمتـاع بالطيبات عامـة، ومنها بالطبع الذوق الجمالي الرفيع في اللباس والزينة، واليسر والسماحة والمرونة التـي يأخـذ بها الأمور في هذا المجال، سـواء في حق نفسه أو في حق توجيهه وتربيته لأصحابه وأمته.

(179) مجموع الفتاوى 1/ 219.

إن الــذي يتأمل هديه عليه الصلاة والسلام في هذا المجال، يلحظ كيف أنه كان يلبس مما تيسر له من اللباس في بيئته من غير تكلف ولا مبالغة، ولا التزام لشيء مخصوص لا يتعداه إلى غيره، كما أنه لم يكن يلـزم غيره باختياراته الذوقية أو ظروفه الشخصية، أو له علاقة بما هـو جبلي أو عرفي أو اجتهادي خاص[180]، بل كان منهجه التربوي قائمـا على ما تمليه الحاجات والمصالـح والأذواق والقدرات الفردية والاجتماعيـة، لإدراكه بأن ذلك هو المقصد الشرعي من ناحية، وبأنه جوهر منطق سنن الله في حياة البشر من ناحية أخرى.

وهذا ما أخذه عنه أصحابه من بعده، لبسوا ما تيسر لهم في بيئتهم وفي البيئـات المختلفة التي عاشوا فيهـا في مختلف بقاع الأرض، ولو كان من سنته عليه الصلاة والسلام التزام سمت هندامي معين لمعنى عبـادي فيه، لعممـه على أصحابه، ولعمّمه أصحابه من بعده على كل بقـاع الأرض التي حلـوا بها فاتحين ودعاة ومرجعيـين كبارا لكل من عداهـم، ولمـا لم يكن ذلك مـن هديه عليه الصـلاة والسلام، ولا من مقاصـد الشريعة، فقـد تنوعت ألبستهم بحسـب الحاجة والمصلحة والإمكان والأذواق، وهو ما أتاح مرونة وخصوبة غير عادية في المنجز الحضاري الإسلامي عبر التاريخ.

وعلـى هـذا الأساس فـإن أي اتجـاه إلى تنميط وقولبـة السمت الهندامـي في المجتمع الإسلامـي، باسم الاتباع والتسـنن، هو ابتعاد عن جوهر وحقيقة هدي القرآن والسنة، ودخول في مجال الاقتدائية الحرفية أو الصورية كما يسميها ابن تيمية في هذا النص الذي سبق أن أوردنـاه، ونستسمح القارئ في إثبـات فقرات منه هنا. يقول: «... وكذلـك ابن عمر كان يتحرى أن يسـير مواضع سير النبي صلى الله عليه وسلم، وينزل مواضع منزله، ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ، ويصـب فضل مائه على شجرة صب عليهـا، ونحو ذلك مما استحبه طائفـة مـن العلماء ورأوه مستحبا ولم يستحـب ذلك جمهور العلماء؛

(180) الشاطبي، الموافقات 4/ 245، 247..

كما لم يستحبه ولم يفعله أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهم لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر، ولو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتداء به؛ وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل، فإذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك..

وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده - مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه - فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول، لم نكن متبعين بل هذا من البدع التي كان ينهي عنها عمر بن الخطاب... وهذا هو الأصل، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل».

وذهب ابن القيم إلى أبعد من هذا، حينما صنف بعض صور الاتباع والتسنن الذاهل عن روح الاقتداء وشروطه الموضوعية التكاملية في نطاق التلبيسات الإبليسية على بعض الناس، وكيده بهم، فقال: «ومن كيده: أمرُهم بلزوم زي واحد، ولبسة واحدة، وهيئة ومشية معينة، وشيخ معين، وطريقة مخترعة، ويفرض عليهم لزوم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض، فلا يخرجون عنه، ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمونه.. وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة، فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة ليسوا مع أهل الفقه، ولا مع أهل الحقائق.

ومن تأمل هدي رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرته وجده مناقضا لهدي هؤلاء، فإنه كان يلبس القميص تارة، والقباء تارة، والجبة تارة، والإزار والرداء تارة، ويركب البعير وحده، ومردفا لغيره، ويركب الفرس مسرجا وعريانا، ويركب الحمار، ويأكل ما حضر، ويجلس على الأرض تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى البساط تارة، ويمشي وحده تارة، ومع أصحابه تارة، وهديه عدم التكلف والتقيد بغير ما أمره به ربه، فبَيِّنٌ هديه وهدي هؤلاء بون شاسع» (181).

---

(181) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان 1/ 122، (تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت 1999).

وملخص ما تناثر من كلام ابن القيم عن اللباس والزينة، في «الإغاثة» و«الزاد» وغيرهما من كتبه، التي تحدث فيها عن هدي رسول الله عليه الصلاة والسلام في اللباس والزينة هو قوله: «والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي سنها وأمر بها، ورغب فيها، وداوم عليها، وهي أن هديه في اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس من الصوف تارة، والقطن تارة، والكتان تارة. ولبس البرود اليمنية، والبرد الأخضر، ولبس الجبة، والقباء، والقميص، والسراويل، والإزار، والرداء، والخف، والنعل، وأرخى الذؤابة من خلفه تارة، وتركها تارة» [182].

إن التأسي الموضوعي ليس عملية إجرائية آلية، يستنسخ فيها المتأسي المفردات السلوكية الصورية للحياة النبوية بحذافيرها، بمعزل عن روح المنهج وقواعده التي حكمت تشكُّل وبناء تلك المفردات السلوكية وإخراجها إلى حيز الوجود، بذلك الإحكام، وتلك الفعالية، وذلك الألق الجمالي الآسر، بل هو - أي التأسي - عملية ثقافية منهجية تركيبية بنائية تكاملية محكمة، ينفذ فيها المتأسي إلى عمق وروح المنهج النبوي، الذي يمكنه من تحقيق التأسي أو لنقل الاستثمار الموضوعي الفعال للسنة النبوية، في ترقية أدائه الفكري والروحي والسلوكي والاجتماعي إلى أعلى مستويات أصالته وفعاليته وقابليته للاطراد.

إننا عندما ننظر إلى واقع الموقف السلوكي لفئات كثيرة في المجتمع والأمة من قضية «الجمالية الهندامية» على ضوء هذه النصوص المتنوعة التي التقطها لنا ابن القيم من سيرته عليه الصلاة والسلام وهديه في اللباس والزينة عامة، يتأكد لنا بوضوح مدى الحاجة الملحة إلى التحكم في مسألة المنهج لتحقيق التأسي الموضوعي الصحيح بالسنة

---

(182) زاد المعاد 1/ 138، (ط3، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرنؤوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998)

النبويــة، واستثمارهــا في التأصيل الفعال لحياتنــا الفكرية والروحية والسلوكيــة والاجتماعيــة، لأنه بــدون هذا التحكــم في مسألة المنهج، تظــل عملية التأسي الذاتــي بالسنة النبويــة، والاستثمار الاجتماعي لها، بعيدة عــن الموضوعية الشرعية والفعالية الاجتماعية المطلوبتين باستمــرار؛ لأن غيــاب المنهج يــؤدي في الغالــب إن لم نقل حتما، إلى الحرفيــة والتجزيئية والتلفيق والنشازيــة السلوكية، التي ربما قذفت بصاحبها بعيدا عن مقاصد الشريعة والمصالح الاجتماعية المرعية.



خاتمة في مستخلصات الرسالة

المستخلص الأول

هو تحقيق الصحوة الإسلامية المعاصرة لمكاسب استراتيجية كبيرة، على طريق مرحلة الإقلاع من مسار النهضة الحضارية الطويل. وهو ما يستدعي يقظة كبيرة على مستوى الصحوة والحركة والمجتمع والدولة والأمة؛ لحماية هذه المكاسب ودعمها، والاستفادة النموذجية منها في استكمال بناء الشروط الموضوعية لمرحلة الإقلاع الحضاري التي طال أمدها بسبب ضعف التراكمية التكاملية في جهود الأمة.

المستخلص الثاني

ومن أسباب ضعف هذه التراكمية التكاملية في جهد حركة النهوض الحضاري علي مستوى الصحوة والحركة والمجتمع والدولة والأمة، تشرذم وتنافر النخب الفكرية والروحية والسياسية والاجتماعية، المؤثرة في مسارات هذه النهضة، بسبب الازدواجية في مرجعيتها الثقافية التي ينشَدُّ بعضها إلى متغيرات الماضي ويذهل عن ثوابته ومحكماته السننية. وينشَدّ بعضها الآخر إلى متغيرات ومفرزات تاريخ الحضارة المعاصرة، ويذهل عن ثوابت ومحكمات ورشد هذه الحضارة. وينشدُّ غيرهم إلى منطق المزاوجة التلفيقية بين هذين الطرفين.

المستخلص الثالث

ويكمن المخرج في تجديد وعي هذه النخب الفكرية والروحية والسياسية والاجتماعية، عبر وصلها جميعا بمنابع الثقافة السننية الأصيلة، التي تجمع وتُكامِلُ بين المعطيات العلمية لمنظومات سنن التسخير الأربعة - سنن الآفاق، وسنن الأنفس، وسنن الهداية، وسنن التأييد - وتتجنب منطق تجزئتها والمنافرة بينها، كما حدث سابقا وما يزال يحدث مع الأسف الشديد، وحرم وعي النخب ومن ثم وعي

المجتمع والأمة من فعالية وثمرات وبركات التكاملية الوظيفية الكامنة في هذه المنظومات السننية أصلا.

فتوسيع دائرة منابع ومعطيات المرجعية الثقافية للنخبة، لتشمل كل ما تتيحه لنا المنظومات التسخيرية السننية الأربعة، من خبرات وإمكانات معرفية ومنهجية وفنية وروحية وأخلاقية ومادية، من شأنه أن يخرج الحراك الفكري والاجتماعي والسياسي للمجتمع والدولة والأمة من دوامات التنافر والاهتلاك الذاتي المزمن والمنهك، ويتجه به نحو التكامل والانسجام والفعالية الاجتماعية والحضارية.

المستخلص الرابع

ونقطة الانطلاق في تجاوز هذه الازدواجية الفكرية والسلوكية والاجتماعية المنهكة، التي تعانيها النخبة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وتشطرها إلى نخبة علمانية ونخبة إسلامية ونخبة وطنية متنافرة، هي بنجاح كل من هذه النخب الثلاث في الانفتاح على بعضها البعض، بكل صدق وتواضع، ورغبة في الفهم والتفهيم، والاستفادة والإفادة، وتحقيق التكاملية الأصيلة المطلوبة بين خبرات وتجارب وكفاءات هذه النخب جميعا.

المستخلص الخامس

المنهج باعتباره قدرة معرفية على أصالة الفهم، وقدرة منهجية على فعالية التمثُّل الذاتي، وفعالية الإنجاز الاجتماعي، وفعالية الوقاية المبكرة والمرافقة والاستدراكية لكل العمليات السابقة، هو روح السنة والسيرة النبوية، ومركز الثقل الأكبر فيها، قبل أن تكون هذه السنة أو السيرة مجرد ترسانة ضخمة من المعلومات والمعارف الفقهية، والتوجيهات الأخلاقية.

المستخلص السادس

وهذه الحقيقـة تعني، على صعيد العلاقة الوظيفية أو التسخيرية بالسنة والسيرة النبوية، أن أي استثمار صحيح لهذه السنة أو السيرة في حياة المسلم؛ فـردا أو جماعة أو مجتمعا أو أمـة، يقتضي الوعي بأصول المنهج وثوابته ابتداء، ثم الالتزام بهذا المنهج في عملية التأسي والاقتـداء والاستثمار الاجتماعي بعد ذلك، وكل اضطراب في الوعي بأصول المنهج وثوابته، يستتبع لا محالة، اضطرابا واختلالا في التأسي والاقتـداء والاستثمار الاجتماعي، لا يؤثر سلبـا على أصالة وفعالية واطراديـة الأداء الاجتماعي والحضاري؛ للفـرد والمجتمع والأمة، في معـتركات التدافـع والتـداول الحضـاري فقط، بل يؤثـر كذلك على مصداقيـة السنـة والسـيرة والإسلام عامة، في نظـر أجيال المجتمع والأمة خاصة، والأجيال البشرية المعاصرة عامة.

المستخلص السابع

الدائـرة الكلية الأولى الضابطة للمنهج في الحركة النبوية، والمؤثرة عليـه بشكل حاسم ومطرد، هي الاستثمـار الشمولي لمنظومات سنن التسخـير الأربـع، بشكل تكاملي متدرج، يجتنب أيـة منافرة بينها، أو تهميشـ لـدور أي منها، ويستوفي حاجـات ومستلزمات كل مرحلة في «الـدورة الإنجازية» للفعل النبوي، بحيث يخـرج في نهاية دورته فعلا أصيلا فعالا مطردا.

المستخلص الثامن

ضـرورة الوعـي بمجـال حجيـة وسلطـة كل منظومـة سننية من منظومـات سـنن التسخـر الأربعـة، واحـترام ذلك بـكل صرامة في عمليـة العلاقة الاستثمارية بكل منظومة من هذه المنظومات السننية التسخيريـة، وعدم الاستعاضة عن أي منها بالأخرى، سواء في مجال

الحجيــة والسلطــة المعرفية، أو في مجال التسخــير الوظيفي لها؛ لما في ذلــك من إخلال خطير بطبيعة ونسقية النظام التسخيري السنني الكلــي الــذي وضعه الله سبحانه وتعالى لانتظــام حركة الاستخلاف البشري في الأرض.

المستخلص التاسع

والدائرة الكلية الثانية الضابطة للمنهج في الحركة النبوية، والمؤثرة عليه بشكل حاسم ومطرد، هي المبدئية الحركية المنضبطة، والواقعية الحركية البصيرة، والفعالية الإنجازية المتوازنة، والاستباقية الوقائية الشاملــة، والاستمراريــة الدائبة، واعتمــاد استراتيجية الإحسان في العلاقة بالآخرين، والاستعانة بالله، بعد استيفاء الأخذ بما تتيحه منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية، والتوكل عليه، وتفويض الأمر إليه.

المستخلص العاشر

المنهج يقتضي باستمرار، أن يكون الاقتداء والتأسي بالسنة والسيرة النبويــة، والاستثمار الاجتماعي لها، اقتــداء واستثمارا موضوعيا أو مقاصديــا منضبطا، يتجاوز العلاقة النقلية التجزيئية الآلية الحدّية، أو العلاقــة الانتقائيــة المميّعــة، أو العلاقــة الذوقيــة المنفتحــة على الخرافة، إلى العلاقة المقاصديــة التحليلية التركيبية التكاملية، التي تخلّص عملية الاستثمــار والتنزيل من كل ما هــو خصوصي وظرفي وتاريخــي، وترتقي بهــا إلى التنزيل والاستثمــار المقاصدي التكاملي المنضبــط، الــذي يضمن أصالــة الموقــف أو الفعل، ويحقــق فعاليته الإنجازية، ويعزز شروط اطراديته التاريخية.

وأخــيرا: أبتهــل إلى الله تعالى أن يغفــر لي ويتجاوز عما يكون قد بدر مني من سهو أو تقصير أو خطأ، أو توجيه لم يصب عمق الهدف المعرفي والمنهجي والتربوي الذي قصدته، وأن يكتب ما في هذه الرسالة من صواب وسداد في ميزان حسناتي، وميزان حسنات كل من يقرؤها وينتفع بها، وينفع بها غيره، إنه هو البر التواب الرحيم.



فهرس المصادر والمراجع

1. إبراهيم العلي، **صحيح السيرة النبوية** ط3، دار النفائس، بيروت 1998.

2. ابن باديس، **مجالس التذكير من حديث البشير النذير**، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر.

3. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت 1957.

4. ابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العصرية، بيروت، 1407هـ.

5. ابن قيم الجوزية. **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت 1999.

6. ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد**، ط3، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1998.

7. ابن قيم الجوزية، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، ط6، تحقيق عبدالله بن عالية، دار الكتاب العربي، 1999.

8. ابن قيم الجوزية، **تهذيب مدارج السالكين**، تهذيب عبدالمنعم صالح العزي، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م.

9. ابن قيم الجوزية، **التفسير القيم**، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.

10. ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط2، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة 1954م.

11. أبو إسحاق الشاطبي، **الاعتصام**، دار المعرفة، بيروت، 2000.

12. أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات**، تحقيق: عبدالله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

13. أبو الفرج بن الجوزي، **تلبيس إبليس**، دار الكتب العلمية بيروت (د.ت).

14. أحمد باوزير، **مرويات غزوة بدر**، مكتبة طيبة، 1980.

15. أحمد بن حنبل، **المسند**، ط2، تحقيق أحمد شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، 1981.

16. إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ط2، دار الفكر، بيروت، 1970.

17. إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، دار الريان للتراث، 1408هـ.

18. ألكسس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة عادل شفيق، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964.

19. ابن رجب الحنبلي، **جامع العلوم والحكم**، ط2، دار ابن حزم، بيروت، 2002.

20. ابن عبد البر، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، 1966.

21. ابن عبدالبر، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، ط2، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1983.

22. أبو بكر البيهقي، **دلائل النبوة**، تحقيق عبدالرحمن عثمان، مطابع دار النصر، القاهرة، 1973.

23. أبو بكر البيهقي، **دلائل النبوة**، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.

24. تقي الدين بن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

25. تقي الدين بن تيمية، **مجموع الفتاوى**، تحقيق عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.

26. تقي الدين بن تيمية، **الفتاوى الكبرى**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

27. جان بيريه، **الذكاء والقيم المعنوية**، ترجمة هيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986.

28. الحسين بن مسعود البغوي، **شرح السنة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412 هـ.

29. رينيه دوبو، **إنسانية الإنسان**، ترجمة نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979.

30. سعيد حوى، **الرسول صلى الله عليه وسلم**، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989.

31. سيد قطب، **هذا الدين**، دار الشروق، بيروت، د.ت.

32. سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، 1974.

33. شهاب الدين محمود الألوسي، **روح المعاني**، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، 2002.

34. شهاب الدين القرافي، **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام**، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ط2، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، 1995.

35. شهاب الدين القرافي، **الفروق**، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

36. الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء المجتمع الإسلامي بالمدينة**. (دكتوراة دولة مخطوطة).

37. الطيب برغوث. **نظرية الإسلام في فلسفة الاستخلاف البشري** (مخطوط).

38. الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة التأسيس العقدي والفكري للمجتمع الإسلامي بمكة**، دار قرطبة، الجزائر، 2004.

39. الطيب برغوث، **قواعد المنهج في الحركة النبوية**، (مخطوط).

40. الطيب برغوث، **مقدمة في الوعي الاستخلافي الأعلى** (مخطوط).

41. الطيب برغوث، **الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية**، طبعة كوالالمبور، ماليزيا، 1999.

42. الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**، دار قرطبة، الجزائر، 2004.

43. الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، دار قرطبة، الجزائر، 2004.

44. الطيب برغوث، **الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**، دار قرطبة الجزائر، 2004.

45. عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، **العقيدة الإسلامية**، ط8، دار القلم، دمشق، 1997.

46. عبدالغني عبدالخالق، **حجية السنة**، دار القرآن، بيروت 1986.

47. علي برهان الحلبي، **السيرة الحلبية**، دار المعرفة، بيروت 1400هـ.

48. عمر عبيد حسنة، **مجلة الأمة**، ع 51.

49. القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

50. مالك بن أنس، **الموطأ**، ط 10، دار النفائس، بيروت 1407 هـ - 1987.

51. محمد العروسي عبدالقادر، **أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالتها على الأحكام**.

52. مالك بن نبي، **تأملات**، دار الفكر، بيروت، 1981.

53. مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ط2، دار الفكر، دمشق، 1974.

54. مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، دار الفكر، دمشق.

55. مبارك الميلي، **رسالة الشرك ومظاهره**، ط3، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982.

56. محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

57. محمد بن هشام، **السيرة النبوية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

58. محمد سعيد رمضان البوطي، **فقه السيرة**، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة 1970.

59. محمد الطاهر بن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، الشركة التونسية للتوزيع 1978.

60. محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير** (د-ت).

61. محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح**، المكتبة السلفية، 1400هـ.

62. محمد الغزالي، **فقه السيرة**، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1988.

63. محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، ط2، دار الفكر، بيروت، 1978.

64. محمد ناصر الدين الألباني، **صحيح أبي داود**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1409هـ.

65. محمد ناصر الدين الألباني، **مشكاة المصابيح**، دار ابن عفان، القاهرة 1422هـ.

66. محمد ناصر الدين الألباني، **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، المكتب الإسلامي، بيروت، 1399هـ.

67. محمــد ناصــر الدين الألبــاني، **الإيمان لابن أبــي شيبة**، دار الأرقم، (ب-ت).

68. محمد ناصر الدين الألباني. **صحيح ابن حبان**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1409هـ.

69. محمد ناصر الدين الألباني، **صحيح ابن ماجة**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1407هـ.

70. محمد ناصر الدين الألباني، **صحيح النسائي**، مكتب التربية العربي لدول الخليج 1409هـ.

71. مسلـم بن الحجاج، **المسند الصحيـح**، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1374هـ.

72. ويـل ديورنت، **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، 1971.

73. ندوة السنة النبوية ومناهجها في بناء المعرفة والحضارة، عمان 1989م.

شروط الإسهام في الإصدار الفكري «أفاق»

- أن يكون للباحث إسهام في ميدان الفكر الإسلامي.
- أن يكون البحث جديدا لم يسبق نشره.
- أن يتناول البحث قضايا الفكر والمنهج والحضارة، منطلقا من واقع الأمة في المعالجة، ومستشرفا للآفاق المستقبلية.
- أن يسهم في تأصيل الرؤية الوسطية وإشعاع قيم الفاعلية والتجديد.
- أن ينطلق، في التحليل والمعالجة، من الرؤية الوسطية القائمة على قيم الإنصاف والحوار والموضوعية.
- أن يبتعد عن إعادة إنتاج الخلاف الفكري والمذهبي
- أن يعتمد المنهجية العلمية في التوثيق والترقيم والتحقيق.
- أن يقدم البحث مطبوعا في ثلاثة نظائر، إضافة إلى قرص مدمج، وأن لا يتجاوز مائتي صفحة، من حجم A4، وبخط Simpliefed Arabic، ذي البنط 16.
- يحق للجنة العلمية أن تقترح على صاحب البحث إدخال التعديلات المناسبة.
- لا تسترد الأبحاث غير المنشورة.
- يقدم لصاحب البحث المنشور مكافأة مالية تقديرية.

نهر متعدد .. متجدد

هـــذا الكتـــاب

تتحرك هذه الرسالة لتعمّق الوعي بأطروحة «المنهج أساس القوة وسر النجاح»، وتُتضح بعض الشروط المعرفية والتربوية والمنهجية للاستفادة منها في تحقيق الاستثمار السنني المقاصدي المنضبط للسنة النبوية، للوفاء بشروط ومستلزمات حركة «التدافع والتجديد» التي تحكم مسيرة أية نهضة حضارية في التاريخ، وتتحكم في صيرورتها الصاعدة أو المتقهقرة بشكل مطرد لا يتبدل ولا يتغير ولا يتعطل، كما يؤكد ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: 40)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 251)، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: 62).



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

